العائدون من الموت

نشوي رجائي السماك-العائدون من الموت- مجموعة قصصية

رقم الإيداع : ٢٠١٨/٣٣٥٢١ ISBN : 978-977-798-110-8

إن دار الحلم للنشر والتوزيع غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره ، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء الدار .

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار

ولا يجوز طبع أو إعادة استخدام أي جزء من العمل في أي صورة كانت إلا بموجب موافقة خطية من الناشر .

© دار الحلم للنشر والتوزيع

عضو اتحاد الناشرين المصريين

القاهرة - جمهورية مصر العربية

Mob : 00201141824562

dar_el7elm@hotmail.com

info.darel7elm@Gmail.com

العائدون من الموت

مجموعة قصصية

د. نشوي رجائي السماك

إهداء

إلي من تمنيت أن يصل كتابي الأول إلي يديه اللتين أشتاق لتقبيلهما اليوم،

إلي هذا الرجل الذي أستطيع أن أقول له بكل صدق :

(من لم يعرفك قد خسر بالفعل كنزا حقيقيا)

إليك أنت يا أبي...إليك يا أستاذي في الحياة

إلي العظيم: رجائي السماك

رحمك الله

مقدمة

أقدم لك عزيزي القاريء في هذا الكتاب مجموعة من القصص القصيرة التي أودعت لك في كل واحدة منها جزءا من نفسي و ربما قابلت أنت أيضا في إحداهن جزءا من نفسك.

أرجوك كن لطيفا و أنت تطرق باب كل قصة حتي لا تزعج أبطالها.

نشوي رجائي السماك

الرجل الذي صارع ظله

استيقظ «عبد السلام» يتحسس جواله بجواره علي سريره لم يجده، فمد يده علي زر الأباجورة ليحصل علي أي إضاءة في هذه العتمة التي لا يري فيها أي شيء بوضوح. فبرغم أن النهار لم تضن شمسه بنورها علي الأشياء خارج هذا البيت، إلا أن عبد السلام قد اختار أن يحجب عن بيته أي مدخل تستطيع أشعة الشمس أن تتسلل إليه من خلاله. تغطي نوافذ البيت المغلقة ستائر سوداء غليظة تحبط آمال الشمس في مرور أشعتها إلي ما وراء تلك الستائر غليظة القلب التي لم تكف عن ابتلاع ما ترسله الشمس.

ضغط علي زر الأباجورة فلم تستطع أن تضيء له فتيار الكهرباء مقطوع عنها. ظل يبحث بيديه عن جواله لعله يجد منه أي اضاءة تساعده علي الرؤية و لكن بلا جدوي.

«ما هذا الصباح الغير مبشر بالخير أبدا» -

هكذا همس إلي نفسه و هو يقوم من فراشه محاولا الوصول إلي النافذة. اصطدم اصبع قدمه الصغير بحافة السرير فأطلق صرخة ألم خافتة و راح يلعن هذا الصباح الذي سيضطره أن يسمح للشمس

بزيارة بيته و التي ستحضر له معها ضيفا يكره وجوده.

استطاع أن يصل إلي النافذة ليزيل عنها الستائر السوداء و هم بفتح الطريق لأشعة الشمس المتزاحمة خلف النافذة لتمر إلي الداخل.
وقف برهة مغمض العينين، ثم فتحهما و هو يعلم من سيري.
« أنت مرة أخري أيها اللعين، يا له من يوم سيء»-
هكذا صرخ «عبد السلام» متحدثا إلي ظله الذي بعثت فيه أشعة النهار الحياة من جديد.
لم يتوقف ظله عن مضايقته بحركاته المستفزة، فمثلا يضع الظل يديه فوق أذنيه و يحرك أصابعه كحركات الصبيان السخيفة أو يظل يرقص كرقصات «مايكل جاكسون» أو يفعل غير ذلك من الحركات فهو يتفنن في مضايقة صاحبه.
إنه الظل الوحيد في الكون الذي يخالف حركات صاحبه و هذا الأمر تسبب في اعتزال «عبد السلام» الخروج بالنهار، فأصبح كائنا ليليا لأنه يخشي أن يحرجه ظله أمام الناس بحركاته و تمرده.
ولد ظل «عبد السلام» مسالما كأي ظل و لكن تمرده بدأ منذ حوالي عام تقريبا فظن «عبد السلام» أن ما يراه هو من تأثير حبوب الهلوسة و الإفراط في شرب الخمر، لكنه وجد أن الأمر لا يتغير حتي في الأيام التي حاول فيها الإمتناع المؤقت عن كل هذا. كلما أفرط ظله في مضايقته، لاذ «عبد السلام» بالفرار إلي الخمر لتسكره، فزاد تعلقه بالخمر أكثر و أكثر.

بحث «عبد السلام» عن جواله فوجده علي الأرض بجوار السرير فتناوله بينما استمر ظله في أداء رقصاته و إشاراته المستفزة. اتصل «عبد السلام» بحارس العمارة ليسأله عن سبب و مدة انقطاع التيار الكهربائي فأخبره أن هناك إصلاحات في أحد الكابلات و سيعود التيار الكهربائي خلال ساعة.

«إذن عليّ أن أتحملك ساعة، أتوسل إليك كن رحيما بي و لو مرة»-

هكذا قال «عبد السلام» مخاطبا ظله في يأس و استسلام.

«لا أفهمك يا بيه، ماذا فعلت أنا ؟ «=

انتبه «عبد السلام» إلي صوت حارس العمارة خارجا من الهاتف، فاستدرك قائلا:

« لا شيء يا جابر، لا أقصدك»-

أنهي المكالمة و تأكد أنه أغلق الخط فعلا، ثم طفق يستكمل معاناته مع ظله المتمرد.

رن الهاتف ليقطع مشاجرة الرجل مع ظله، إنه إتصال من «مهند» صديق «عبد السلام».

« آلو...»-

« كيف حالك يا عبد السلام، أوقظتك من النوم ؟! «=

«لا ..كنت مستيقظا»-

ثم صمتا لبرهة فبادره عبد السلام قائلا:

– «ما الخبر يا مهند، صوتك و موعد اتصالك يشعراني أن هناك شيء مقلق، ماذا حدث؟»

أجابه «مهند» متلعثما:

«اسمعني يا صديقي، هو مجرد شك و غير مؤكد و إن شاء الله لن يكون الأمر كذلك».

صرخ فيه «عبد السلام» و القلق يغرس أنيابه في قلبه:

« أرجوك أخبرني ما الأمر دون مقدمات سخيفة مثلك، قلبي لا يحتمل هذه الطريقة»-

«حسنا سأخبرك.. رأيت منذ دقائق منشورا علي الفيسبوك عن حادث غامض حيث عثروا علي جثتين بالطريق الصحراوي لسيدة شابة و رضيعها، و لا يوجد معها ما يثبت هويتها».

قاطعه «عبد السلام» بصوت واهن يخرج بصعوبة من حلق إنسان قد أجهز عليه الخوف:

« رهف و ابني يا مهند ؟»-

«لا أنكر أن الصورة تشبه رهف و لكن الصورة غير واضحة الملامح بشكل كامل فأعتقد أنك ستكون الأفضل في التعرف علي الجثة و تتأكد إذا كانت هي أم لا....و قلبي يحدثني أنها ليست هي».

انفجر «عبد السلام» في البكاء، ثم قال «مهند»

«تماسك يا صديقي، لعلها ليست هي. أنا في الطريق إليك سأخذك للتعرف علي الجثتين و إن شاء الله لن تكونا لزوجتك أو ابنك».

«أرسل إليّ الصورة أرجوك يا مهند، الآن»-

« حسنا سأفعل و لكن ارجوك أن تتماسك»

أرسل «مهند» المنشور لصديقه المسكين عبر النت، لكن للأسف

لم يستطع «عبد السلام» أن يجزم إذا كانت صاحبة الجثة هي زوجته فعلا أم لا فالصورة غير واضحة بشكل كافي و خاصة أن هناك إصابات و كدمات في الوجه.

لم ينتظر «عبد السلام» صديقه مهند حتي يصل إليه، فانطلق متوجها إلي المشرحة للتعرف علي الجثتين. لم يكن ظله رحيما به حتي في الوقت الذي هو فيه في منتهي الألم و الضعف. استمر ظله يتراقص أمامه و يصنع حركات مستفزة دون أي رأفة بحاله.

راح «عبد السلام» يسترجع ذكرياته مع زوجته «رهف» التي تزوجها منذ ثلاثة أعوام. كم كان يشعر بالأمان في حضنها الدافيء الحنون، كم احتملت حماقاته و خياناته، كم صبرت علي ضعفه أمام إدمانه للخمر و المخدرات. تذكر كم كانت الحياة جميلة و صوتها يملأ عليه البيت حتي و هي تصرخ في وجهه ليكف عن تدمير حياتهما. تذكر كم كان و لازال يعشقها و يتمني أن تعود إليه مرة أخري هي و ابنه الذي أخذته منذ عام و هربت به قبل أن يتم شهره الثاني. تذكر الرسالة التي تركتها له «رهف» بعد أن أخذت ابنهما و رحلت إلي مكان لا يعلمه أحد.

وصل «عبد السلام» إلي المشرحة و قدماه تجاهدان ضعفهما حتي تستطيعا أن تحملانه. توجه إلي الموظف المسئول و أخبره أنه جاء ليتعرف علي جثة السيدة و رضيعها و قبل أن يتم كلامه، قاطعه الموظف قائلا::

تقصد السيدة الشابة التي عثر عليها عند الكيلو ٤٠ مع رضيعها؟

رد «عبد السلام» في ألم:

-نعم

فقال الموظف:

السيدة « أميمة السيد عبد العزيز» ؟

رد عبد السلام متسائلا:

-هل تم التعرف عليها؟

نعم منذ ساعة تقريبا

شعر «عبد السلام» أنه يكاد يبعث من جديد و لكنه يريد أن يتأكد فأخرج هاتفه المحمول و عرض الصورة علي الرجل قائلا:

-أعني هذا المنشور و هذه الصورة

فنظر الموظف إلي المنشور و الصورة ثم قال مؤكدا:

نعم يا سيدي، تم التعرف عليها و اسمها «أميمة السيد عبد العزيز

أطلق «عبد السلام» ضحكات متناثرة ، تقاطعها عبرات حارة ثم انطلق يجري كالمجنون في الشارع و ظله يجري معه و لا يكف عن سخافاته التي لم يعد في مقدور «عبد السلام» أن يتحملها. توقف «عبد السلام» في الشارع غير عابيء بالناس من حوله ثم أخرج مطواة من جيبه و راح يصرخ منقضا علي ظله محاولا أن يسدد إليه طعنات عنيفة و لكن الظل لا يموت و لا يتوقف عن الحركة.

نظـر المـارة إليـه في اندهـاش مشـفقين عـلي هـذا الرجـل فاقـد العقـل فلـم يحاولـوا الإقـتراب منـه حتـي لا يصيـب أحدهـم بـأذي فهـو يحمـل في يـده مطـواة. يئـس «عبـد السـلام» مـن الخـلاص مـن ظلـه الـذي لا يمـوت فقـرر أن يسـدد الطعنـة إلي قلبـه هـو.

فتـح «عبـد السـلام» عينيـه ليجـد نفسـه راقـدا في سريـر متصـل بأجهـزة طبيـة، في العنايـة المركـزة لاحـدي المستشـفيات. سـمع صوتـا بجـواره يسـأله:

«كيف حالك ؟»

نظـر إليـه فوجـده طبيبـا ذا معطـف أبيـض يقـف بجـوار سريـره. هـز «عبـد السـلام» رأسـه دون أن يتكلـم.

فسأله الطبيب:

هل تعرف ما اسمك؟»

فرد قائلا:

-عبد السلام

هل تعرف أين نحن الآن يا عبد السلام ؟»

-في مستشفي

فابتسم الطبيب قائلا:

عظيم...حمدا لله علي سلامتك

ثم استطرد الطبيب قائلا:

هنـاك شـخصا يريـد زيارتـك وسـأكسر قواعـد العنايـة المركـزة هـذه

المـرة مـن أجلـه و أسـمح لـه أن يدخـل لـك الآن خـارج المواعيـد الرسـمية للزيـارة.

أغمـض «عبـد السـلام» عينيـه متعبـا فهـو لا طاقـة لديـه و لا رغبـة في أن يـزوره أحـد أو يتحـدث إلي أحـد. دخلـت سـيدة شـابة ذات وجـه بـريء أصابـه الذبـول و الشـحوب و اقتربـت مـن سريـره. ثـم أمسـكت يـده ففتـح عينيـه ليجدهـا صاحبـة الوجـه الـذي لم يغـادر وجدانـه لحظـة. قبلـت يـده و دموعهـا تنهمـر عـلي خدهـا الشـاحب.

إنهـا «رهـف» زوجتـه. نظـر إليهـا بعينـين منسـكرتين و لم يملـك سـوي أن يجيـب قبلتهـا بدمـوع ذرفتهـا روحـه المنهكـة، ثـم أغمـض عينيـه متعبـا.

أحيانـا يحمـل العمـر للإنسـان أكـثر مـن ميـلاد، و هكـذا كتـب اللـه لعبـد السـلام ميـلادا جديـدا حيـث خضـع لعـلاج الإدمـان و العـلاج النفـسي ليعـود رجـلا جديـدا يسـتحق أن يكـون أبـا و زوجـا.

أمـا ظلـه فقـد عـاد الآن لطبيعتـه التـي خلـق اللـه عليهـا جميـع الظلال، فقـد شـفي «عبد السـلام».

العائدون من الموت

كان يوما شديد البرودة فقد وصلت درجة حرارة الجو إلي ثلاث درجات مئوية نهارا خلال هذه الموجة الباردة التي تزور «مصر» قادمة من «أوروبا» و كأن «أوروبا» قد أبت أن تترك «يوسف» دون أن تطارده ببرودتها حتي في حضن وطنه الذي افتقد دفئه سنوات طويلة قضاها في مدينة الضباب «لندن.

و لكن هذا البرد بجبروته و قسوته لم يستطع منع «يوسف» من تلبية نداء والده المتوفي الذي زاره في منامه البارحة، فقد رآه «يوسف» مرتديا جلبابه الأبيض و طاقيته البيضاء ممسكا بمسبحته عائدا من صلاة الجمعة حينما قابله «يوسف» في الطريق فناداه مقبلا نحوه بلهفة:

-»أبي ...أبي»

فنظر إليه والده، ثم أدار وجهه عنه و استكمل طريقه غير عابئ به. جن جنون «يوسف» و هرع خلف أبيه يناديه باكيا:

- «أبي أرجوك توقف, انتظرني....لقد اشتقت إليك...عد إليّ أو خذني معك»

توقف والده ثم نظر إليه و لم ينطق، فعاد «يوسف» ليستكمل

توسـلاته الباكيـة:

-» أبي..أتتركني مرة أخري بعد أن وجدتك...رفقا بي لا تقسو عليّ و لا تحرمني منك مجددا».

أدار أبـوه وجهـه عنـه مـرة أخـري فجثـي «يوسـف» عـلي ركبتيـه و ظـل يبـكي بـكاءا شـديدا و يتوسـل إليـه أن يسـامحه، فاقـترب منـه الأب في حنـان كعادتـه ثـم وضـع يـده فـوق رأس ولـده و هـم أن يقـول شـيئا لكنـه لم يفعـل و لم يحـاول «يوسـف» أن يسـأله أو أن يرفـع رأسـه حتـي لا يفقـد ذلـك الشـعور الجميـل الـذي يشـعر بـه و يـد والـده الحبيـب تلامـس رأسـه فيتسـلل الشـعور بالامـان الي قلبه...شـعور يشـبه كثـيرا ذلـك الـذي يشـعر بـه ظـمآن مـع أول شربـة مـاء بـاردة تطفـيء رمـض جوفـه ، و يشـبه كثـيرا ذلـك الشـعور الـذي يشـعر بـه سـجين ظـل يحلـم بنـور الشـمس ثـم وجـد نفسـه فجـأة حـرا لتسـتقبله أشـعة الشـمس بعنـاق طويـل.

ثـم رفـع والـده يـده عـن رأسـه و شرع في الرحيـل, فعـاود «يوسـف» توسـلاته مـرة أخـري:

-»أبي ...أرجوك ابق معي...لم أشبع من قربك بعد»

فنظر إليه والده بينما هو مستمر في المضي في طريقه:

«سأنتظر زياتك لي فلا تتأخر».

توسل إليه «يوسف» :

-»أبي خذني معك»

فرد والده:

= «لم يحن الوقت بعد يا ولدي ...و لكن لا تنسي أن تكرم ضيفك في بيتك «

ثم كررها مؤكدا :

«في بيتك يا يوسف».

و حين استيقظ «يوسف» قرر أن يلبي دعوة والده لزيارة قبره اليوم مهما كانت الظروف و أنه لن يتأخر عن تلبية دعوته في مماته مثلما تأخر عنها في حياته، و ها هو الآن يقف أمام قبر والده وحيدا في المكان، و من ذا الذي يستطيع أن يفكر في زيارة المقابر في مثل هذا الجو شديد البرودة برياحه العاصفة و أمطاره الغزيرة.

وقف «يوسف» يقرأ الفاتحة لوالديه و ظل يدعو لهما وقد اختلطت دموعه بماء المطر بينما تمر برأسه ذكريات كثيرة تقتحمه و تسيطر عليه، بعضها يعتصر قلبه ألما و ندما و أخري تحتضنه و تهبه دفئا كم يفتقده. انبري يتحدث إلي والده و يعتذر له بدموعه و تنهيداته عن سنوات الغربة التي فرقتهما و عن عدد المرات التي خذل فيها رجاءه حينما كان يرجوه أن يعود إلي مصر حتي يقضي الأب ما بقي من عمره غير محروما من ولده الوحيد.

و بينما هو علي هذا الحال لمح «يوسف» عجوزا يخرج من احدي المقابر، ففزع منه لكنه راح يفسر لنفسه أنه مجرد وهم وارد الحدوث خاصة مع مشاعره المضطربة و هذا الطقس. ازداد فزعه

حينما تيقن أن الأمر حقيقة و ليس وهما علي الإطلاق. ظل يردد آية الكرسي و عيناه تراقبان هذا الشخص العجيب و لكنه تنبه إلي أن الرجل يرتدي ثيابا – و إن كانت متسخة و قذرة – إلا أنها ليست كفنا بأي حال من الأحوال. ربما هذا الرجل قد أتيا به الاشتياق و الوجع إلي حبيب قد وراه الثري.

توقف الرجل و وضع يديه علي وجهه ، يبدو أنه يبكي، ثم انفجر يصرخ مقهورا:

«لم ترفضونني !! لم لا تريدونني بينكم !! أجيبوني !! ..... لقد تعبت وأريد أن أعود إلي عالمي و أرقد فيه كما ترقدون».

ظل العجوز يصرخ هكذا و يوسف يراقبه متعجبا حيث أنه لا يري حيا في المكان يمكن أن يكون هو الموجه له هذا الحديث.

- (لعله يكلم الموتي ! لا حول و لا قوة إلا بالله , يبدو أنه رجل فقد عقله, ياله من مسكين).

هكذا تحدث «يوسف» إلي نفسه ثم استدار ليهم بالرحيل. و ما لبث أن سار في طريقه خطوات قليلة حتي لاحظ أن صراخ الرجل قد توقف تماما فدفعه الفضول أن يتفقد ما الأمر.

اقترب من المكان الذي كان يقف فيه العجوز، فرأه جالسا القرفصاء يرتعد من البرد مرتديا ملابس خفيفة قد أغرقها المطر فالتصقت علي جسده النحيل الهزيل الذي بدا كأنه هيكلا عظميا عليه بقايا من لحم قد تحلل و مغطي بجلد داكن اللون.

تقدم إليه «يوسف» بحذر حيث أنه لا يستطيع أن يتوقع ردة فعله ثم ألقي عليه السلام. نظر إليه العجوز غير مكترث و لكنه رد عليه السلام و راح ينظر إلي الأرض مرة أخري مستمرا في شرود عقله و ارتعاد جسده النحيل.

شعر «يوسف» بزلزال يهزه من الداخل, فوجه الرجل يشبه كثيرا وجه والده الراحل لولا اختلاف لون البشرة و العينين. لم يدر بنفسه إلا و قد نزل إلي الأرض و ضم الرجل إلي حضنه بكل ما يحمله من اشتياق لوالد قد حجبه الموت عنه و بكل ما يحمله من ندم و أسف و اعتذار لم يمهله القدر أن يقدمهم لوالده.

الغريب أن العجوز لم ينزعج مما فعله «يوسف» بل أنس إليه. خلع «يوسف» معطفه و ألبسه بيديه للرجل و الذي بدا مستسلما لكل ما يفعله به. اختفي عدم الاكتراث من نظرة العجوز ليوسف وبدأ يظهر شيئا جديدا به حياة في عيني الرجل.

قال «يوسف» :

- (هل تعرف عنوان بيتك يا والدي الطيب؟)

رد الرجل بصوت منكسر:

= «ربما هنا، ربما في مقبرة أخري، لا أعلم»

تعجب «يوسف» من الرد و لكنه تأكد أنه يتعامل مع شخص لديه مشكلة عقلية أو نفسية. فأمسك بيده لينهضه قائلا:

- (تعالي معي يا والدي أستضيفك في بيتي لترتاح و تبدل ملابسك

التـي أغرقهـا المطـر حتـي لا تمـرض).

نظرالعجوز إليه في هدوء قائلا:

«اطمئن يا بني , الموتي لا يمرضون مثلكم»

فوجـيء «يوسـف» بهـذا الـرد الـذي و رغـما عنـه أصابـه بـشيء مـن الفـزع و الخـوف ولكنـه صـار يذكـر نفسـه أن الرجـل غريـب الأطـوار و أن مـا يقولـه لا يتعـدي الهلوسـة.

تمكـن «يوسـف» مـن اصطحابـه إلي بيتـه و قـد اسـتطاع خـلال حديثـه معـه في الطريـق إلي البيـت أن يحصـل منـه عـلي بعـض معلومـات متناثـرة لا يعلـم إن كانـت حقيقيـة أم أنهـا مـن ضمـن هلوسـاته، حيـث فهـم منـه أن اسـمه «عـزب» و ليـس لديـه أولاد، و أن زوجتـه متوفـاة.

كان «يوسـف» يشـعر بواجـب نحـو «عـزب» منـذ أن لمـح في وجهـه ملامـح والـده المتـوفي و تضاعـف هـذا الشـعور بعـد أن تذكـر مـا قالـه لـه والـده في المنـام حينـما طلـب منـه الزيـارة ثـم أوصـاه أن يكـرم ضيفـه في بيتـه.

-» لم يكن حلما بل رؤية»

هكذا ظل يردد «يوسف» بينه و بين نفسه.

اسـتطاع «يوسـف» أن يقـدم للرجـل كل مـا يسـتطيع مـن رعايـة في بيته ثـم اسـتعان بصديقـه الدكتـور «عاطـف» و هـو أخصـائي أمـراض نفسـية و عصبيـة ليسـاعده في التـصرف في هـذا الأمـر. كان رأي «عاطـف» أنـه يتحتـم عـلي «يوسـف» أن يرفـع عـن نفسـه المسـئولية القانونيـة نتيجـة ايـواءه لشـخص مجهـول الهويـة فطلـب منـه أن يذهـب إلي الشرطـة

ليخبرهم بالأمر و يتخذ الاجراءات اللازمة، فربما هو مفقود من أهله و هم يبحثون عنه. أما بالنسبة لتشخيصه الطبي لحالة «عزب» فقال:

»إنها متلازمة وهم كوتار، و هو مرض نفسي غير شائع قد يتوهم المريض به أنه ميت أو أنه غير موجود و يتعامل علي هذا الأساس. قد يحدث المرض نتيجة التعرض لصدمات نفسية أو إصابات دماغية في حادث ما».

ثم استطرد مطمئنا صديقه:

«هناك حالات كثيرة استجابت للعلاج»

بالفعل توجه «يوسف» إلي قسم الشرطة و اتخذ جميع الاجراءات القانونية التي قد تساعد «عزب» في العثور علي أهله. ثم عاد به إلي البيت و قرر ارسال صورته إلي إحدي الصفحات علي موقع «الفيسبوك» المتخصصة في البحث عن المفقودين.

لم يبخل الدكتور «عاطف» بوقت أو جهد في علاج العجوز المسكين. كان كل هذا يحدث في بيت «يوسف» الذي كان مصرا علي أن يتم العلاج في بيته مهما تكلف الأمر.

ذات يوم اتصل ضابط القسم بيوسف ليخبره أنه وجد بلاغا من إحدي دور المسنين بإختفاء أحد النزلاء اسمه « عزب الباجوري» و له نفس مواصفات الرجل الذي عثر عليه «يوسف».

ذهب «يوسف» إلي دار المسنين و استطاع أن يشرح لهم وضع الرجل

صحيا ، و اتخذ كل الاجراءات القانونية الممكنة لتمكنه من الاحتفاظ بالعجوز المريض في بيته كي يتلقي علاجه كاملا، و خاصة بعد أن علم أن «عزب الباجوري» لديه ابن وحيد قد هاجر مع زوجته إلي «كندا» بعد أن أودع والده في هذه الدار و أنهم قد أرسلوا إليه خبر هروب والده و لم يجدوا منه أي رد حتي الآن.

مرت الأيام و هي تزيد من تعلق «يوسف» بعزب و تزيد من تعلق «عزب» بيوسف. ربما هذه المشاعر الجميلة كان لها دور في نجاح العلاج فعلا.

كان «عزب» في كل مراحل مرضه لايزال محتفظا بشيء من الحكمة، لدرجة أن «يوسف» كان حريصا جدا أن يستمع إليه حتي في هذيانه. لاحظ «عاطف» أن «عزب» حين يمسك بورقة و قلم يرسم رسوما لا تصدر سوي عن فنان فلفت «عاطف» نظر صديقه «يوسف» إلي هذا الأمر. و بالفعل اهتم «يوسف» بتوفير أدوات الرسم جميعها، مما كان له أثرا إيجابيا في نفس والده البديل «عزب الباجوري» الذي أرسله له القدر، فكل منهما كان في احتياج شديد إلي الآخر و لا أحد يستطيع أن يجزم من الأكثر احتياجا للآخر.

تم بفضل الله تعالي شفاء «عزب الباجوري» و أصبح يري كرجل ذو همة و نشاط خاصة مع شعوره بالمسئولية عن «يوسف» ابنه الجديد. نعم , فلقد رأي «عزب» أنه الآن أبا مسئولا عن «يوسف» مما جعله يشعر برغبة حقيقة في الحياة مع أنه لم ينس أبدا ولده

الأصلي من دعائه في صلواته، بل هو لا يزال منتظرا لعودته مع أحفاده بفارغ الصبر المختلط بشيء من اليأس.

أما عن جرائد اليوم فلا أظن أن واحدا منها لم ينزل به إعلان عن المعرض الفني لأعمال الفنان «عزب الباجوري» الذي سيقام قريبا و هذه كانت هدية «يوسف» لأبيه الجديد في عيد ميلاده السبعين.

جيوران

في زمن بعيد و في بقعة منسية من بقاع الأرض، كانت تقع مملكة صغيرة تسمي «جيوران» و بترجمة هذا الاسم إلي اللغة العربية فإنه يعني «أرض الخلود»، فقد سميت المملكة بهذا الإسم لأنها تتميز بأن أعمار أهلها مديدة حيث أن متوسط عمر الفرد فيها لا يقل عن الألف عام.

عاش أهل « جيوران» منعزلين تماما عن العالم فخريطة العالم لا تعلم شيئا عن وجودهم و كذلك هم لا يعلمون الكثير عن ما هو خلف الجبال المحيطة بمملكتهم, فالأساطير الجيورانية التي يرددها الجميع منذ قديم الأزل تقول أنه من يخرج من أرضهم تذبل شجرة عمره خلال عام واحد فقط من تاريخ خروجه و لذلك لم يحاول أحدهم أن يفعلها.

و لكن «ميكاس» ذلك الفتي الذي لم يتجاوز من العمر المئة و خمسين عاما، أصبح دائم الانشغال بفكرة محاولة عبور الجبال ليستكشف العالم المختبيء خلفها. لقد أصابه مثل ما أصاب من قبله عددا محدودا من شباب المملكة، إنه مرض «الشغف» الذي يجاذب عقولهم و أفئدتهم ليحضهم علي استكشاف المجهول. كان معلوما لدي اهل المملكة أن هذا الشغف مرض خطير و أنه يجب علي من يصيبه أن يسارع إلي التداوي منه فبحسب قوانين

المملكة كان لزاما علي من يستشعر في نفسه الإصابة بهذا المرض أن يلوذ بأقرب طبيب من أطباء «جيوران» ليسلم نفسه إلي العلاج و إن لم يفعل سيسلمه المحيطين به بمجرد الاشتباه به. كان أطباء «جيوران» ماهرين في مداوة مرضاهم من هذا الشغف حيث لا يعود إليهم أبدا.

كان «ميكاس» يعلم كل هذا، و لكنه يكره أن يخضع للعلاج فقد أحب شغفه و رأي فيه صديقا حقيقيا بل كان أحيانا يراه عدوا حميما.

-» مهلا أيها الشغف الذي تأبي أن تدع قلبي و شأنه, ألا تعلم أن ثمن رضوخي لإلحاحك هو أني سأفقد حياتي لأموت في هذه السن المبكرة...! «

-» اسمعني أيها المزعج سواءا كنت صديقا أو عدوا, سأعيش حياتي مثل جميع أهل مملكتي و أعدك صادقا أنني حين أوشك علي اتمام العام الألف من عمري سأركض خلفك إلي ما وراء تلك الجبال العالية».

ظل هذا الحديث يتكرر من «ميكاس» إلي «الشغف» لأعوام عديدة و في كل مرة كان يظن «ميكاس» أنه يستطيع أن يغلب شغفه و لكنه و قد اوشك علي بلوغ المائتي عام من عمره فإنه فعليا قد يئس من مقاومته و قرر الاستسلام له.

كان «ميكاس» عاشقا لفتاة تسمي «بريليان»، و هي فتاة جميلة طالما تنافس لارضائها العشاق، وجهها كالبدر، شعرها أسود بلون

الليل ينساب علي كتفيها و ظهرها، أما عن عينيها فلم تكن قصائد الشعراء لتنصف جمالهما مهما اجتهدوا، فضلا عن قوام رشيق لا يتخلله عيب، و لم تكن تمتلك جمال الخلقة فقط بل كانت فتاة طيبة، حنونة ، رقيقة ، ذات صوت ملائكي عذب فإذا غنت طربت الأشجار و الأزهار و الطيور.

كانت «بريليان» أيضا تبادل «ميكاس» نفس الحب فقد فضلته علي الجميع و قررت الزواج به فور اتمامه المائتي عام من عمره ليستطيع أن يتقدم لخطبتها ،فقوانين الزواج في المملكة لا تجيز أن يخطب الشاب فتاة قبل أن يتم المائتي عام.

و قبل بلوغ «ميكاس» القرن الثاني من عمره بأيام قليلة قرر أن يصارح «بريليان» بانهزامه أمام شغفه و أنه قد قرر أن يركض خلفه إلي ما وراء تلك الجبال. لم يكن هذا القرار سهلا أبدا بالنسبة لميكاس و لكنه صار أضعف من أن يقاوم هذا الشغف و لم يجد مفرا من الاستسلام له.

انهارت «بريليان» أمام اصراره علي الرحيل فهي لا تريد أن يفارقها أبدا و خاصة إذا كان سيفارقها إلي المجهول.

« إذن سأرحل معك يا ميكاس، لن أتركك»

-»هل جننتي يا بريليان !! أنتي تختارين الموت».

«نعم أختار الموت معك لأنني لن أتحمل موتي و انا علي قيد الحياة اذا هجرتني»

عانقها «ميكاس» عناق مودع لقطعة من قلبه ثم قال لها:

- «إذن فانتظريني في نفس المكان بعد سبعة أيام من الآن لنرحل معا عند شروق شمس اليوم السابع».

انصرف «ميكاس» و قد انتوي أن يرحل في نفس اليوم و أنه لن ينتظر السبعة أيام. كان مقررا الرحيل بدونها فهو لا يقبل أن يأخذها بيديه إلي حتفها.

انطلق يشق طريقه بين الجبال و يواجه مخاطر كثيرة ليجد نفسه في أكثر من مرة أمام الموت وجها لوجه ثم يدير الموت وجهه عنه و ينصرف.

استطاع «ميكاس» أن يصل إلي ما وراء الجبال و في هذه اللحظة انتابته فرحة شديدة لم يعكرها أبدا أي خوف من موت ينتظره خلال عام واحد بحسب الأسطورة الجيورانية. و كيف يخاف الموت من اختاره ثمنا لتحقيق حلمه..!!

انطلق «ميكاس» ليجوب بقاع الأرض و يستكشف هذا المجهول العظيم الذي خبأته تلك الجبال خلفها. مر «ميكاس» ببلاد كثيرة و شعوب مختلفة و ثقافات متنوعة ليملأ سنوات عمره الكثيرة التي عاشها بعد خروجه من مملكته بكنوز المعرفة و الحكمة.

هل كانت الأسطورة الجيورانية كاذبة حين أخبرت بأن من يتجاوز الجبال المحيطة بالمملكة تذبل شجرة عمره خلال عام واحد؟! أم أن الموت ينهزم أمام من لا يخشاه ؟!

أتم «ميكاس» الألف من عمره خارج المملكة ليقرر أن يعود مرة أخري إلي وطنه حاملا له ثمانية قرون من عمره مملوءة بكنوز لا

تقدر بمال.

استطاع «ميكاس» أن يتجاوز الجبال مرة أخري عائدا إلي داخل «جيوران» و لكنه فوجيء بأن المملكة لم تعد أبدا تشبه حالها حين تركها.

وجد «ميكاس» القبح يغزو كل مكان دون أي استنكار أو استياء من الناس، وجد الناس تتسابق علي الحصول علي جيف الحيوانات المتعفنة و تتلذذ بأكلها، وجد النهر الكبير كما لم يتركه أبدا فقد أصبح أهل «جيوران» يحتفلون بعيد النهر الكبير بالقاء القاذورات به في احتفالية شعبية حاشدة.

بحث عن «بريليان» الجميلة متوقعا أن تكون قد تزوجت من أحد الأمراء أو ربما صارت ملكة المملكة و لكنه صعق حين رآها في صفوف الخدمات بل و الأغرب أن صفوف الخدمات لا تضم سوي الجميلات اللاتي يتم معاملتهن أسوأ معاملة من قبل مخدوماتهن و العجيب أن هؤلاء المخدومات كلهن قبيحات ذوات أجساد غريبة غير متناسقة و وجوه تضج بالقبح و لا يتوقفن عن الغناء بأصواتهن المزعجة ،و كلما غنت إحداهما صفق لها من يسمعها منتشيا بصوتها البشع.

استطاع «ميكاس» أن يخطف «بريليان» ليهربا إلي كهف صغير بتلك الجبال العالية التي يخشي أهل المملكة الاقتراب منها. كانت عودة «ميكاس» بالنسبة لبريليان معجزة بثت فيها الحياة من جديد، فقد كان عقلها مصدقا أن ميكاس لقي حتفه بمجرد خروجه من

المملكة و لكنها في الوقت ذاته كانت تشعر أنه مادام قلبها ينبض بصدرها فإن «ميكاس» قلبه ينبض هو الآخر بصدره، عاشت في صراع بين ما يقوله عقلها و بين ما يهمس به قلبها حتي وجدته أمامها حيا يرزق.

-» ما الذي حدث في جيوران في غيابي يا بريليان ؟ ماذا دها الناس؟ كيف تمكن القبح منهم؟ «

تنهدت بريليان تنهيدة طويلة ثم قالت:

=» آاااه يا ميكاس ...كم هو مؤلم ما حدث، لقد تسلل القبح في جنح الليل ليتخذ جندا له يساعدونه في مهمته حتي أصبح قويا و انطلق يغري الناس و يستدرجهم إلي قصره ليسقيهم مشروبه السحري الذي ينسيهم معني الجمال الحقيقي ليقدسوا هذا القبح».

ثم استطردت قائلة:

» تأخذني معك هذه المرة إلي خارج المملكة فإنه لم يعد لنا مكان فيها، لقد تمكن القبح و سيطر علي كل شيء».

-» اسمعيني يا بريليان لن أترك وطني....مكاننا هنا ..في وطننا»

«لن نستطيع أن نعيش في هذا القبح يا ميكاس...صدقني»

-» لن نعيش في القبح يا بريليان ..سنحاربه بالجمال الذي لا يموت حتي و إن نساه الناس».

ابتسمت «بريليان» في سعادة ثم قالت:

= «لقد أصبحت محاربا لا يقهره شيء يا ميكاس»

الترنيمة

عاودها الاشتياق إلى مراقبة شروق الشمس الذى طالما عشقته ولا تعرف ما هو هذا الشىء السحرى الذى يربطها بشكل غير مفهوم بانتظار هذا العرس اليومى الذى يشهده الكون بعد انسلاخ الليل. عرس يتكرر يوميا لا تمله ولا يمله الكون بل إنه ليستقبله فى كل مرة بنفس الشغف ويتجدد كل شىء ليبدو أجمل من سابقه.

جلست «يسرا» إلى نافذتها التى باتت تنتظرها فى نفس الموعد كل يوم. جلس بجانبها قطها الذى أخرج رأسه من النافذة متكئا عليها بذراعيه الصغيرتين كما لو كان إنسانا صغيرا. تعلقت عيناها بالسماء ويبدو أنها اليوم لن تعطى الأرض نصيبا من نظرات عينيها الهائمتين المسافرتين فى السماء. كان القط ينظر مرة إلى السماء ومرات أخرى عديدة إلى الأرض, لا يرى فى السماء سوى تلك الطيور التى تستفز لديه نزعة الصيد فيحلم أن تخطئ طريقها فتدخل إلى مملكته فى بيت صاحبته, بينما صاحبته ترى فى السماء عالما لا محدودا تحلم بالسفر يوما إليه وفيه ومن خلاله إلى كل شيء ارتقى عن العالم الأرضى. تسافر بناظريها إلى عالم تشتاقه بشدة ولا تستطيع أن تصل إليه.

أقبلت سحابة كبيرة من أقصى الشرق على امتداد البصر لتستقر فى أقرب نقطة ممكنة من نظر «يسرا». كانت الفتاة تراقب السحابة وقلبها يحدثها بأن هناك شيئا مختلفا قد تحمله. وبالفعل كان قلبها محقا فقد انشقت السحابة أمامها فانتابها شيء من الفزع والترقب الطموح, ثم خرج منها ثلاث فتيات لهن هيئة وملامح البشر ولكن وجوههن لهن إضاءة البدور فى تمامها. فزعت منهن لأول وهلة – كما نفزع حينما يفاجئنا خارق لم نعتاده- ثم شعرت تجاههن بألفة عجيبة.

تحدثت إحداهن إليها قائلة:

«نحن لسنا جنيات ولا كائنات فضائية, بل نحن بشر مثلك عشقنا السماء وتعلقنا بها وكان حلمنا مثل حلمك, ولكننا قد اهتدينا إلى سر تحقيق هذا الحلم. إنه السر الذى مكننا من أن نسافر فى عالم السماء اللامحدود».

نظرت إليها «يسرا « بعينين يتلألأ بداخلهما الطموح مختلطا بالدهشة والتساؤل ولكنها لا تنطق تاركة لهن فرصة استكمال الحديث، فتتحدث الثانية لتكمل حديث رفيقتها قائلة :

«تريدين أن تسافرى إلى السماء، والأرض تجذبنا قهرا. ولكن عليك أن تعلمى أن الأرض لا سلطان لها إلا على ما ينتمى إليها ويرتبط بها ويخضع إليها خضوع العبد الضعيف إلى سيده القوى. لقد خلقنا

مـن تـراب الأرض وحلـت الـروح بنـا لترتقـى بهـذا الـتراب الأرضى فتظـل الـروح تجذبنـا للتعلـق بالسـماء ويظـل الـتراب الـذى خلقنـا منـه يشـدنا إلى الأرض.

وجئنـا إليـك بالـسر فى ترنيمـة حينـما ينشـدها قلبـك يغفـو الجـزء الأرضى بداخلـك لمـدة لا يعلمهـا إلا اللـه، إلا أنـه كلـما ازدادت عذوبـة وجـمال الإنشـاد كلـما طالـت غفـوة مـا يقيـد حريتـك. ولكـن عليـك أن تعـرفى شـيئا قبـل أن تقـررى السـفر ألا وهـو أنـه قـد لا تعوديـن كـما كنـت أبـدا».

ثـم امتـدت يـد الزائـرة الثالثـة إلى «يـسرا» حيـث أعطتهـا مكتوبـا لتقـرأ منـه هـذه الترنيمـة المعجـزة. أخذتـه «يـسرا» دون أن تنبـس ببنـت شـفه ثـم نظـرت إلى قطهـا الـذى اختبـأ بـين ذراعيهـا فهـو يخـشى الغربـاء والمفاجـآت.

انطلقـت الزائـرات الثلاثـة إلى حـال سـبيلهن وبقيـت «يـسرا» والترنيمـة وقطهـا المختبـئ بحضنهـا. لقـد قـررت الآن خـوض التجربـة التـى طالمـا حلمـت بهـا بالرغـم مـن أن عبـارة « قـد لا تعوديـن كـما كنـت أبـدا» ظلـت تسـتثير مخاوفهـا وأوجـدت مسـاحة للـتردد الـذى تكرهـه رغـم أنـه كان رفيقهـا فى أوقـات كثـيرة فى حياتهـا.

وجهت»يسرا» حديثها لقطها القابع بحضنها قائلة :

«لقـد قـررت أن أخـوض التجربـة وأن ألاحـق حلمـى لعـلى أظفـر بـه, فهـلا تـأتى معـى؟»

ابتعـد القـط عنهـا خائفـا فهـو لم يجـرؤ يومـا أن يشـاركها هـذا الحلـم

مثلما شاركها الطعام أو اللعب أو النوم. اقتربت منه ومسحت على رأسه ثم عادت إلى مكانها وأخذت تنشد الترنيمة بقلبها الذى عبر صوته العذب آفاقا لم يخطر بباله يوما أن يصل إليها.

وتحقق الحلم فوجدت نفسها ترتقى فى السماء ,تراقص الكواكب، تقبل الأقمار وتعانق الحرية التى لم تشعر بها مثل الآن.

كم جميل هذا السحاب الذى يتشكل لها كما تريده, فتارة تغوص فيه وتارة أخرى تتخذه بساطا تتنقل به فى السماء وأحيانا تغلبها فرحتها وإحساسها بالحرية فترقص فوقه فيضحك حينما يشعر بفرحتها وجنونها.

صارت تتنقل من سحابة لأخرى فى جنون جميل إلى أن وجدت شابا تعرف ملامحه جيدا ولكن وجهه يضوء وكأن شمسا قد نبتت بجوفه, يرتدى ثياب الأمراء كما فى الحكايات التى كانت تحكيها جدتها. نظرت إلى نفسها فإذا بها هى الأخرى ترتدى ثياب الأميرات كما فى نفس الحكايات.

نظر إليها الشاب والحب بعينيه يعانق قلبها الذى كان يعرفه جيدا, وهى الأخرى كان الحب بعينيها يسبق خطواتها نحوه. مد إليها يده ليراقصها فتركتها له وصارت ترقص معه والسعادة تصاحب خطواتهما.

لعل الكون اليوم يشهد عرسا جديدا مع شروق الشمس. ولكن هذا العرس أيضا له غروب برغم الحب ونقائه حيث أن حبهما لا يكون صاحب الكلمة العليا عليهما إلا فوق السحاب حينما يستطيع

كل منهما أن يتحرر من العند والكبر. عجيب أمرهما فكل منهما حينما ينزل إلى الأرض فإنه يركض هاربا من الأمان بدلا من أن يركض نحوه.

استيقظ التراب الأرضى من غفوته وهبط كل منهما إلى مكانه. ظلت «يسرا» تحتضن ذكرى اللقاء الذى شهدته السماء وتتمنى لو أنهما يستطيعان أن يحررا حبهما من القيود التى يكبلانه بها.

أمسكت بهاتفها المحمول لترسل إليه رسالة وقبل أن تنتهى من كتابتها جاءها تنبيه لوصول رسالة.

(أيمن !! إنه هو)

ابتسمت ابتسامة تسع الكون كله وبدأت تقرأ رسالته:

«عزيزتى يسرا كان لقاؤنا جميلا يستعصى على أى لغة فى الكون أن تصف جماله...تحرر كل منا من قيود حرمته كثيرا من جنة كان يمكنه أن يستمتع بروعتها منذ سنوات.

كم تمنيت ألا ينتهى هذا اللقاء أبدا...و لكنه انتهى.

للأسف لا أظن أننا نستطيع على الأرض أن نصبح سماويين، لا أستطيع أن أنسى أنك يوما قررت إنهاء علاقتنا بلا مبالاة بعمق ما كان يجمعنا .

لقد تركتِنى فى أكثر الأوقات التى شعرت معك فيها بالأمان والحرية. كنت متوهما أنك قد امتلكت مفاتيح ذاتى ولكنك خذلتِنى كما لم يفعل بى أحد من قبل.

أنا لا أكرهك ولكننى لا أستطيع أن أقول لك أنى أحبك إلا حينما

تراقصيننى فوق السحاب لأننا وقتها نكون شخصين مختلفين عن هذين اللذين نكونهما فى عالمنا الأرضى. وقتها فقط أتذكر أنى فعلا أحبك.

عزيزتى «يسرا» أعلم أنك كنتِ ستكتبين لى رسالة أنت أيضا ولكن دعينى أخبرك بما كنتِ ستقولين فى رسالتك.

ستكتبين عن روعة لقائنا وكم كنا سعداء وقتها، ستبكين صادقة حزنا على ما قد خسرناه واشتياقا لرجوعه مرة أخرى وستعتذرين عن ما صدر منك فى حق هذا الحب الذى دهسناه بنعال العند والكبرياء، ثم ستبدئين فى لومى وعتابى ولربما بل بالتأكيد سوف تبدأين فى جلدى بسياط الحساب العسير بتهمة أنى لم أسامحك ثم إذا أخبرتك أنى لا أستطع إلى الآن أن أتجاوز الموقف فستهرعين مرة أخرى إلى كبريائك قاتلى ليقلتك كما قتلنى ويقتل معنا حبا لم نمهله أن يزهر.

عزاؤنا فى تلك الترنيمة المعجزة، لا تتركيها فهى السبيل الوحيد إلى سعادتنا التى لم نستطع أن نحققها على الأرض».

أربعون يوم من العزلة

كـوخ خشـبي في بقعـة مـن الصحـراء، كان هـو المـكان الـذي قـرر «نسـيم» أن يقـضي فيـه فـترة العزلـة التـي قررهـا لنفسـه دون أن يسـمي لهـا أجـلا.

«نسـيم» هـو شـاب ثلاثينـي، يـراه البعـض فاشـلا بينـما يـراه آخـرون سيء الحـظ، أمـا هـو فأحيانـا يـري نفسـه يطـارد حظـا هاربـا يركـض أمامـه كظبـي هـارب مـن سـبع جائـع، وأحيانـا أخـري يـري نفسـه فاشـلا و أن الحـظ متهـم بـريء مـن ذنبـه.

قـرر «نسـيم» أن يهجـر الجميع...مدينتـه، أصدقـاءه و أعـداءه. قـرر أن يـترك خلفـه مشـاكله و خيباتـه و يلجـأ إلي العزلـة الإختياريـة التـي اختـار لهـا هـذا المـكان البعيـد عـن كل شيء يخـص حياتـه.

إنـه اليـوم السـابع لـه في هـذا المـكان، لم يشـعر بملـل أو حنـين إلي مـا تركـه بـل أصبـح يشـعر تدريجيـا بإرتيـاح أكـثر و انتـماء إلي هـذا المـكان.. يشـعر أن لـه جـذورا باتـت تشـق لنفسـها طريقـا في هـذه الأرض لعلهـا تنبـت إنسـانا جديـدا.

اعتـاد «نسـيم» أن يجلـس إلي منضـدة خشـبية في أحـد الأركان يضـع فوقهـا كتبـه و أوراقـه البيضـاء التـي اعتـادت بدورهـا أن تنتظـره ليروي لهـا يوميـا مـا يجيـش بصـدره و مـا يجـول بخاطـره منـذ أن وطـأت

قدماه هذا الكوخ. تواجه المنضدة مباشرة مرآة كبيرة و قد وضع بجانبها نبتة صغيرة في إناء، كان حريص كل الحرص علي الاهتمام بها يوميا.

أمسك بقلمه و أقبل علي أوراقه البيضاء ليكاشفها بما يفكر فيه. راح يشكو لها معني خيبة الأمل في حبيبته التي لم تتفهم طبيعة شخصيته و خذلت طموحه في أن تكون هي المرأة التي يلقي بغموضه و كبريائه تحت قدميها ليكون طفلا صغيرا بين ذراعيها ورجلا مكتمل الرجولة في عينيها يحيطها بكامل رعايته و حنانه. وبينما هو منهمك في البوح ناظرا إلي أوراقه تارة و إلي مرآته تارة أخري، رأي في المرآة رجلا قادما نحوه، فانتفض في ذعر قائلا:

- من أنت ؟ و ماذا تريد؟ و كيف دخلت إلي هنا؟

ابتسم الرجل ابتسامة هادئة ثم قال:

اهدأ يا صديقي ...لا تخف.

لم يمهله «نسيم» أن يكمل ما يقول فتناول سكينا من فوق المنضدة وأشار به نحوه قائلا بصوت عال لا يخلو من نبرة خوف :

- قف مكانك لا تتحرك ....من أنت ؟ و ماذا تريد؟ و كيف دخلت إلي هنا؟

توقف الرجل و لم تفارق وجهه الابتسامة المريحة ثم قال :

أنا رجل غريب و دخلت من هذا الباب (مشيرا إلي باب الكوخ). هل نسيت أنك لم تغلق بابك من الأصل يا عزيزي؟

تدارك «نسيم» أنه لا يغلق الباب إلا في أخر الليل، فابتلع ريقه ثم

سأله مرة أخري و القلق لم يتخل عنه بعد:

- وما الذي جاء بك إلي هنا ؟

فأجابه الزائر و العرق يترقرق علي جبينه و عناء السفر الطويل باد عليه:

سأروي لك إن شئت و لكن هل لي أن أرجوك أن تروي عطشي ؟

ناوله «نسيم» كوبا من الماء ثم جلسا معا حيث تبادلا حديثا طويلا و من الغريب، بل ربما يكون هو أغرب الغرائب أن هذا الحديث الطويل لم يكن حول قصة الرجل الغريب الذي فاجيء «نسيم» في معزله، فقد أنساه الحديث و شغفه بحكمة الزائر أن يسأله عن حكايته و عن سبب زيارته.

طلب الغريب منه أن يقرأ عليه آخر ما دونه في أوراقه فتناول «نسيم» – دون أي تردد- أخر ورقات كتبها اليوم و راح يقرأها له و كأنما كان ينتظر هذا الزائر منذ أمد طويل ليقص عليه و يبوح له. كان يتحدث عن حبيبته التي خذلته، ظل الغريب يستمع إليه إلي أن أنهي حديثه.

صمت الرجل قليلا ثم نظر إليه قائلا :

عزيزي «نسيم»، أرجوك أن تحاول رؤية الأمر علي حقيقته و ليس كما تريد أن تراه. ما أراه أنا هو أنك تسعي وراء شيء أنت تعلم مواصفاته جيدا و تريده بشدة، لكنك كلما اقتربت منه ارتبكت وحاولت الهروب بل و ألقيت باللوم علي الطرف الاخر...نعم إن الطرف الاخر كانت له أخطاءه لكنها لم تكن أبدا السر وراء

ابتعادك. واجه نفسك بشجاعة و اسأل نفسك: هل خذلت أنا أيضا آمال الطرف الآخر؟ هل كنت عادلا في تقييم الأمور؟

أصبح نسيم» ينتظر زيارات الغريب بلهفة، كان يشعر و كأن حكمة الغريب هي الماء الذي يسقيه لينبت رجلا جديدا كم تمني طويلا أن يكونه. لم يكن الغريب في البداية زائرا منتظما في زياراته و لكنه مع مرور الوقت صار يزوره يوميا كلما زارته الشمس. اعتاد «نسيم» أن ينتظره جالسا في مواجهة مرآته لعله يراه قادما إليه كما رآه أول مرة.

جاء الزائر المنتظر في موعده و جلسا كعادتهما يتبادلان أطراف الحديث ثم مع اقتراب غروب الشمس خرجا ليسيرا حول الكوخ. تعلقت عينا «نسيم» بسرب من الطيور يبحر في السماء، ثم قال و لازالت عيناه تراقب السرب:

- كنت أتمني أن يخلقني ربي طيرا فأطير إلي حيث أشاء و أستمتع بالحرية و أرفرف بجناحيّ في جو السماء.

ثم نظر إلي صاحبه مستطردا:

- إنني أغبط الطيور و لو كان متاحا لي الاختيار لاخترت الآن أن أتحول إلي طائر حر.

وقال مؤكدا:

- إني جاد في ما أقول.

ابتسم صاحبه ثم قال:

ربما كنت محقا في أمنيتك و لكن طيرانهم ليس أمرا بسيطا أو

سـهلا، إنـه أمـر شـاق تقـوم بـه أجنحتهـم.

ضحك «نسيم» قائلا:

- يا صديقي لا تفسد الصورة الحالمة التي كونتها في خيالي.

ابتسم صاحبه قائلا:

لم أتعمـد إفسـاد الصـورة الحالمـة في خيالـك لكنـك أكـدت عـلي جديتـك فيـما تقـول فـأردت أن أواجـه جديتـك بمـا قلتـه لـك.

ثم استطرد قائلا:

أنـت كإنسـان قـد تملـك فضـاءا تحلـق فيـه بجناحيـك أوسـع كثـيرا مـن فضـاء متـاح للطـير يخـشي فيـه أن يكـون صيـدا لجـارح أو لبندقيـة صيـاد عـلي الأرض أو يخـشي فيـه أن يـكل جناحيـه فيحتـاج إلي الراحـة. أنـت قـد تملـك فضـاءا يشـعرك بحريـة لا نهائيـة، فقـط تحـرر مـن أثقالـك و حلـق فيـه بروحـك.

أشرقـت شـمس اليـوم الأربعـين و جلـس «نسـيم» إلي المنضـدة في مواجهـة المـرآة منتظـرا قـدوم صديقـه، و بينـما هـو كذلـك رأي في المـرآة صديقـه قـد جـاء و لكنـه كان واقفـا ثابتـا لم يقـترب ثـم ابتسـم ابتسـامة رضـا صافيـه ثـم تهشـمت المـرآة إثـر اهتـزازة عنيفـة ناتجـة عـن انفجـار قـوي في إحـدي المناجـم القريبـة مـن المـكان، ففـزع «نسـيم» ثـم عـاد لهـدوءه سريعـا لينظـر خلفـه حتـي يـري صاحبـه ذو الابتسـامة الصافيـة فلـم يجـده فـأسرع إلي خـارج الكـوخ يبحـث عنـه لكنـه لم يجـد لـه أثـرا.

عـاد «نسـيم» إلي الكـوخ و عقلـه يضـج بالتسـاؤلات. توجـه تجـاه بقايـا المـرآة المتهشـمة فلاحـظ تلـك النبتـة التـي طالمـا حـرص عـلي أن يسـقيها يوميـا قـد نمـت و أزهـرت.

حينهـا أدرك «نسـيم» مـن هـو صاحبـه الحكيـم, و أدرك أيضـا لمـاذا كان لا يـأتي إلا حينـما ينتظـره أمـام المـرآة. أدرك أيضـا أن النبتـة قـد أزهـرت الآن و حـان وقـت العـودة مـن العزلـة التـي لم تخـذل مـراده منهـا.

حظ سعيد

الآن فقط انتهي «سعيد» من كتابة آخر سطور روايته الجديدة فترك القلم من يده أخيرا و قام منتشيا بإنجاز هذا العمل ثم انطلق نحو مطبخه لتناول كوبا من اللبن البارد كعادته في نهاية كل ليلة، ثم عاد إلي غرفته ليأوي إلي فراشه. فإذا به يجد شخصا جالسا علي طرف سريره موجها ظهره إليه و لا يري وجهه. كاد «سعيد» أن يخر مغشيا عليه، و لكنه لم يفعل.

قال «سعيد» بصوت مرتعش يخرج من حنجرته بصعوبة:

- من أنت؟ و كيف دخلت إلي هنا؟

وقف الرجل الغريب ثم استدار إلي «سعيد» فقال:

أعرفتني الآن؟ أنا هشام.

تمني «سعيد» أن يغشي عليه و لكن دون جدوي، تمني أن يوقظه أحدهم من هذا الكابوس السخيف و لكن أحد لم يفعل لأنه لم يكن نائما و ما يراه ليس بكابوس، إنما هو واقع ليته ما وقع.

حاول «سعيد» مرة أخري أن يستدعي صوته المختبيء داخل حنجرته ثم قال:

- أنت مجرد شخصية خلقتها في خيالي، كيف تتجسد هكذا ؟

رد «هشام» في تأثر:

خلقتني بخيالك و جسدتي بقلمك و كتبت مأساتي بارادتك

قال «سعيد» و هو يحاول أن يصدق ما يراه:

- لقد خرجت من صفحات روايتي؟

رد «هشام»:

نعم.

فقال سعيد:

- و ماذا تريد؟

لقد قررت أنت أن يقتلني غريمي، لماذا كتبت له الحياة و كتبت لي الموت؟ أنا أريد أن أفلت من الموت.

صمت «سعيد» قليلا محاولا استيعاب ما يحدث، ثم قال محاولا اقناعه:

- و بم سيفيدك الافلات من الموت إذا كان بنهاية الرواية ستنتهي كل أدواركم جميعا؟

لم تبد علي «هشام» أي بوادر للإقتناع بما يقوله «سعيد»، فاسرع الأخير ليقول:

- أكان يرضيك أن تكون قاتله و تقضي ما بقي لك من عمر سجينا، ذليلا؟! أنت «هشام» الذي يئن فؤاده كلما رأي طائرا مسلوب الحرية خلف قضبان قفص لعين.صدقني أنت لن تحتمل السجن.

رد «هشام»:

مممم..سوف أفكر في الأمر. و إن لم يعجبني سوف أجيئك مرة أخري.

هـم «هشـام» بالمغـادرة ليعـود إلي صفحـات الروايـة الملقـاة فـوق المكتـب و لكنـه أراد أن يقـول شـيئا لسـعيد قبـل أن يعـود إلي الصفحـة التـي جـاء منهـا.

ولكـن تذكـر جيـدا أن هـذه الروايـة أكـثر بؤسـا مـن حياتكـم. لا أعـرف لمـاذا تحبـون صناعـة البـؤس في حيـاة غيركـم..!

اختفـي «هشـام» فتنفـس «سـعيد» الصعـداء، و راح يهـز رأسـه محـاولا أن يسـتفيق مـن هـذا الوهـم.

- يبدو أنني تأثرت بروايتي أكثر مما ينبغي.

هكـذا قـال «سـعيد» مخاطبـا نفسـه، ثـم ألقـي بنفسـه عـلي الفـراش و أغمـض عينيـه و استسـلم إلي النـوم.

انقـضي الليـل في هـدوء ثـم قـرر المنبـه أن يمـارس عادتـه اليوميـة في إيقـاظ «سـعيد» بصوتـه المزعـج الـذي لا ينقطـع إلا إذا مـد صاحبـه يـده ليضغـط عـلي زر لايقافـه. أخـرس «سـعيد» منبهـه بيـده و هـو مغمـض عينيـه لا يريـد أن يفتحهـما فهـو لم يشـبع مـن الراحـة بعـد. شـعر «سـعيد» بيـد تنكـزه محاولـة إيقاظـه، و لكـن لمـن تكـون هـذه اليـد وهـو مقيـم بمفـرده بهـذا المنـزل الصغـير..!

حـاول «سـعيد» تكذيـب نفسـه فقـرر ألا يلتفـت و لكنـه لم يسـتطع أن يغمـض عينيـه، فشـعر مـرة أخـري بنكـزة جديـدة. انتفـض قائمـا و نظـر إلي جـواره فوجـد هـذه المـرة «بيومـي».

أراد «سـعيد» اسـتدعاء الإغـماء ليرحمـه مـن هـذه الصدمـة و لكـن بـلا جـدوي كالعـادة. ظـل «سـعيد» ينظـر إلي «بيومـي» دون أن يسـعفه

لسانه ليسأله ماذا يريد منه، و لكن «بيومي» هذا الهارب من الرواية قرر أن يقطع هذا الصمت قائلا:

فراشك جميل و مريح، فضلت ألا أتحدث معك إلا في الصباح و أن أقضي الليلة نائما بجوارك علي هذا الفراش المريح النظيف بعد أن تسبب لي فراش السجن في آلام في ظهري.

وضع «سعيد» وجهه بين كفيه ثم قال:

-كنت نائما بجواري يا بيومي طوال الليل؟! حسنا، ماذا تريد أنت الآخر؟

لقد قتلت «هشام» و حكم القاضي عليّ بالسجن المؤبد، أنا لا أريد السجن.

أزاح «سعيد» كفيه من فوق وجهه و نظر إلي بيومي ثم قال:

-إذن فأنت لا تريد أن أجعلك تقتل هشام.

بل أقتله، و لكن دون سجن.

ثم استطرد «بيومي» قائلا في تأثر:

أريد أن أجد مثلك فراشا وثيرا أمدد جسدي فوقه كل ليلة

أطرق «سعيد» مفكرا لثواني ثم قال:

- اسمع يا بيومي، لا أجد حلا أفضل من أن أجعل هشام يفلت من القتل و بالتالي لن يقضي عليك بالسجن.

أراد «بيومي» الإعتراض و لكن «سعيد» طلب منه أن ينصرف الآن و أن يفكر في الأمر علي مهل.

جلس «سعيد» محاولا استيعاب ما يحدث، و لكنه فجأة وجد

نفسه محاطا بشخصيات روايته جميعا و في مقدمتهم كان «هشام» الذي عاد إليه مرة أخري.

تقدم «هشام» قائلا:

لقد فكرت في الأمر و قررت قرارا وعرضته علي جميع زملائي الذين تجرعوا البؤس مسجونين بين صفحات روايتك.

كان «سعيد» فاغرا فاهه، محدقا إلي هؤلاء الذين خرجوا من بين أرواقه الملقاة فوق مكتبه.

استكمل «هشام» حديثه قائلا:

قررنا جميعا مغادرة روايتك، و أن يشق كل منا طريقه من جديد خارج الرواية

اقتربت «سوزي»، تلك الفتاة اللعوب ذات الشعر الأحمر و البشرة البيضاء، في دلال نحو «سعيد» و همست في أذنه:

كم أنت وسيم، لن أتركك.

ابتعد «سعيد» و ألجأ ظهره إلي حائط الغرفة و هو ينظر إليهم جميعا و قد تعالت أصواتهم و اختلطت أحاديثهم فلم يعد يستطيع أن يميز ماذا يقولون، ثم....!!

ثم قررت أنا أن أترك هذه القصة العجيبة عند هذه النهاية و أقوم لأخلد إلي النوم و أتمني ألا يصيبني مثل ما أصاب «سعيد».

هل جربت أن تطاردها؟

(أبي الحبيب ..أحبك كثيرا ...أعلم أنه في عالمك الجديد لا تقرأون الخطابات المكتوبة و لكنك عودتني أن اكتب إليك و تكتب إليّ حتي أصبحت كتابة الخطابات بالنسبة لي هي خير وسيلة للتعبير و التواصل مع من أحب).

كتب «آدم» هذه الكلمات ثم استوقفه صوت الرعد في هذه الليلة الممطرة، فتأمل كم كان دائما يخشي هذا الصوت و يفزعه حتي أنه كثيرا ما كان يخجل من رد فعله تجاه صوت الرعد أمام الآخرين و لا سيما الفتيات. لكن ما فعله صوت الرعد بآدم الآن لم يتجاوز أنه جعله يتوقف لوهلة عن الكتابة و ينظر تجاه الشباك ليبتسم ثم يعاود مرة أخري كتابة ما كان يكتبه.

«آدم» شاب في أواخر العشرينات من عمره، تركه أبوه منذ أن كان في السابعة من عمره للعمل باحدي دول الخليج العربي، و اعتاد الأب أن يراسل ولده بالخطابات منذ أن سافر إلي أن توفي الأب تاركا «آدم» يتيما في الخامسة عشرة من عمره.

نعم ...»آدم «يكتب الآن خطابا إلي والده المتوفي بعد انقطاع الخطابات بينهما منذ اكثر من ثلاث عشر عاما أي منذ رحيل الأب الي العالم الآخر.

كان آدم يعشق أباه الذي اقتصر التواصل المباشر بينهما علي السبعة أعوام الاوائل في حياة «آدم» و علي شهور الاجازات القصيرة خلال الثمانية أعوام الأخيرة في حياة الأب.

عادود «آدم» كتابة الخطاب و قد افترش أمامه علي المكتب مجموعة من آخر الخطابات التي أرسلها إليه والده سلفا...كتب «آدم»:

(لقد علمتني يا أبي أن أحاول دائما أن أطرد مخاوفي و أطرحها بعيدا عن تفكيري...طالما فشلت يا أبي في أن أفعل ذلك و كنت كلما حاولت طردها عاودت هجومها عليّ و كأنها تتلذذ بمضايقتي.... كنت دائما لا استسلم أبدا لها و أحاول قدر الامكان تجاهلها حتي لا تهزمني.....علمتني دروسا كثيرة يا أبي و لم تكن الحياة بأبخل من أن تعلمني دروسا أكثر.

أبي ..أعلم أنك طردت مخاوفك كثيرا ...فهل جربت يوما أن تطاردها ؟

نعم، تطاردها .....لقد قررت ألا أطرد مخاوفي بل أطاردها .... حينما تطارد مخاوفك لن تهزمها فقط بل ستكتشف العالم الذي ستقودك اليه و هي تهرب منك.

نحتاج في الحياة كثيرا من الجنون و كثيرا من الشجاعة نقتحم بها عوالم جديدة لم نجرؤ يوما علي التفكير في دخولها....نحتاج أن نجرب يوما أن نلقي بأنفسنا في قطار لا نعلم وجهته مسبقا.

نحتاج أن نحب أكثر و نخاف أقل ...نحتاج أن نحرر أنفسنا من

قيـود خفيـة تحرمنـا مـن أن نشـعر بالسـكينة في حـضرة أشـد المخلوقات ضراوة و خطـورة.

مخـاوفي لم تكـن دائمـا عـدوا ....أحيانـا تكـون صديقـا يريـد أن يدعـوني لأركـض خلفـه فيقـودني الي اشـياء لم أكـن لاكتشـفها إن امتنعـت عـن مطاردتـه و اكتفيـت بإغـلاق أبـوابي في وجهـه معتقـدا أننـي بذلـك أحمـي نفـسي مـن الفشـل و أتقـدم الي النجـاح.

أبي الحبيـب أردت فقـط أن تشـاركني مـا توصلـت إليـه و أن أطلعـك عـلي فلسـفتي الجديـدة في التعامـل مـع مخـاوفي التـي طالمـا نصحتنـي أن اطردهـا لأحمـي نفـسي مـن الفشـل.

و في الأخـير أقـول لـك أننـي أتمنـي حـين يصـل قطـار حيـاتي الي عالمـك أن يعوضنـي اللـه بقربـك عـن سـنوات حرمـاني منـك في العـالم الزائـل.

ابنك المخلص

(آدم)

انتهـي آدم مـن كتابـة خطابـه و لم ينتـه بعـد الرعـد مـن تسـبيحاته. وضـع آدم خطابـه مـع خطابـات أبيـه القديمـة في درج المكتـب ثـم تقـدم إلي الشـباك منتشـيا بصـوت حبـات المطـر تطـرق شـباكه ففتـح الشـباك و اندمـج يتسـابق مـع الرعـد في التسـبيح.

صبا

ازدادت قتامة اللون الأزرق الذي اكتسي به جسد الطفلة النحيل، منذرا بالإقتراب تمكن الموت من هذه النبتة البشرية التي لم يمهلها الوقت أن تزهر. لقد ولدت «صبا» تلك المولودة الجميلة و جسدها الصغير يئن بمرض يخنق خلاياه كي يسلبها الحياة. قال طبيب المدينة العجوز أن الصغيرة تعاني من عيب خلقي في قلبها الوليد و أنه لا يستطيع بما أوتي من علم أن ينقذ حياتها. اعتصر الألم قلب والدها الذي ود لو هجر ضلوعه ليحل بين ضلوعها فيمنحها فرصة جديدة للحياة. و قبل أن يهم الرجل بالمغادرة حاملا فلذة كبده المريضة، دخل إلي حجرة الطبيب شاب يلهث،لا يستطيع التقاط أنفاسه المتلاحقة، متلهفا إلي قول شيء يبدو خطيرا و لكن أنفاسه لا تسعفه حتي يستطيع أن يخرج الكلمات من فمه.

أسرع الطبيب العجوز إلي الشاب اللاهث و ربت علي كتفيه قائلا:

- التقط أنفاسك يا بني بينما عيناه تتسعان تساؤلا و لهفة تريدان أن تسألاه عن الخبر الخطير الذي قد جاء به.

كان هذا الشاب هو أحد تلامذة طبيب المدينة العتيق و هو أقرب مساعديه إليه. استطاع بعد أن التقط بعض أنفاسه أن يصيح مخبرا أستاذه في حماس و فرحة:

- لن تصدق يا سيدي ....لقد جئتك بخبر من مختبر عالم الفلك

المجنـون.

تعلقـت أنظـار الطبيـب و الأب بـه دون أن يحـاولا أن يقاطعـاه, ثـم اسـتطرد قائـلا:

- إنهـا تلـك العاصفـة النيزكيـة المباركـة التـي حدثتنـا عنهـا مخطوطـات أجدادنـا القدمـاء.... لقـد عـادت مـن جديـد لتـزور مدينتنـا بعـد أكـثر مـن ألـف عـام.

لازال الطبيـب العجـوز ينظـر إليـه فاغـرا فـاه، بينـما ينتقـل الأب بعينيـه المتسـائلتين بـين الطبيبـين لعلـه يسـتطيع أن يفهـم مـا الأمـر. ثـم صـاح العجـوز بتلميـذه:

-أمتأكد هو ؟!!! ....كيف و متي ستأتي؟ ...أجبني.

ابتلع الشاب ريقه و قال:

- نعـم الخـبر مؤكـد و الرجـل في مختـبره قـد ازداد جنونـا أكـثر مـما كان عليـه و أمـرني أن أخـبرك أنـه قـد اسـتطاع بالفعـل أن يسـتطلعها و أن علينـا أن ننتظرهـا خـلال ليلتـين.

قفـز العجـوز بفرحـة و كأن روحـا خفيـة قـد دبـت في أوصالـه المتهالكة، و الأب ينظـر إليهـما و لا يفهـم مـاذا يعنـي هـذا الخـبر العجيـب.

ثـم صـاح العجـوز بتلميـذه و هـو يحـاول أن يسـتجمع شـيئا مـن جديتـه:

-فلتعلمهـم أن يجمعـوا جميـع مـرضي المدينـة اسـتعدادا للعاصفـة المباركـة.

صـاح بهـما الأب محـاولا أن يسـتفهم مـا الأمـر و مـا علاقـة تلـك

العاصفة بالمرضي و ما سبب هذه الفرحة. في هذه اللحظة بدأ الطبيب العتيق أن يدرك مجددا تواجد الطفلة و والدها، فحاول أن يستجمع شيئا من وقاره و هيبته ثم قال بجدية لا تخلو من الحنان والتعاطف:

- هذه ظاهرة لا تتكرر إلا كل ألف عام علي الأقل، لم نعرف عنها سوي من مخطوطات أجدادنا القدماء. هي نيازك مباركة يرسلها لنا الإله الواحد الأعظم تحمل معها معجزات من لدنه و بركات يرسلها إلي الأجساد المريضة فيصيب برحمته من يشاء منها فتعود صحيحة.

تلعثم الأب وهو يري يد الله تمتد إليه لتنقذ ابنته من المرض، قائلا:

-صبا يا سيدي. ...هل ستشفي ابنتي صبا بهذه الظاهرة المباركة ؟

صمت العجوز لبرهة ثم قال:

- علميا لا نستطيع أن نجزم إذا ما كانت النيازك المباركة ستختار ابنتك أم لا، و لكنني أوقن أن إلهنا الرحيم لن يخذل نظرة الأمل التي أراها في عينيك الآن.

ثم استطرد قائلا:

- ما جاءت به المخطوطات القديمة هو أن العضو المريض تصيبه بركة مضاعفة عن سائر الأعضاء، حيث أصابت الظاهرة المباركة ذات مرة جسد مريض مصاب بالشلل فصار يمتلك قوة هائلة في أطرافه و قيل أن هذا الرجل هو الذي قام وحده بحمل الأحجار

أثناء بناء المعبد الأكبر الموجود حاليا في وسط المدينة. و تشير المخطوطات أنه في حالات أمراض القلوب تحديدا يعود القلب ببركتها إلي خضاره الغض و لا يلوثه غبار السنين و لا تغيره قسوتها. جاءت الليلة المنتظرة حيث جمع مرضي المدينة في ساحة المعبد الأكبر ثم أقبلت العاصفة النيزكية المباركة توزع الشفاء علي أجساد أرهقتها الأوجاع واختارت قلب «صبا» لتهمس فيه:

« لقد جئنا من أجلك أنت و بسببك أنت جاء الشفاء إليهم اليوم».

لملم اللون الأزرق قتامته و كآبته راحلا عن جسد الطفلة لتشرق بخلاياه الحياة من جديد. كم بدا جميلا هذا الوجه الصغير و الشمس تطل من ثغره المبتسم لتعانق الأمل!

مرت السنون و قلب «صبا» الغض الأخضر لا يتغير و لا يقسو و لا يشيب، يفوح بعبير البراءة التي تستكين إليها وحوش القفار ولكنه – كعادة القلوب الغضة- كان الأوفر حظا في تجرع مرار الخذلان وطعنات الغدر و الحقد. ضاقت الفتاة الطيبة بالآلام فتناولت بيدها خنجرا زادته دموع عينيها المنهمرة عليه لمعانا ثم وجهته إلي قلبها لتخلصه من الألم نهائيا و لكن شيئا لا يمكن تصديقه أبدا قد حدث. لقد قبّل الخنجر خضار قلبها ثم انحني تقديسا له فإنه لا يستطيع أن ينفذ إلي هذا القلب بسوء أبدا.

أشرقت الشمس من ثغر «صبا» الباسم لتعانق الأمل من جديد وإلي الأبد.

محطة قطار

اليوم جمعهما القدر مرة أخرى لدقائق معدودة فى محطة القطار، ولكن ليس من قبيل المصادفة بل عن موعد تواعدا عليه بعد أن اختار كلاهما البعد عن الآخر إرضاءً لغروره ورضوخا لسلطان العند بداخل كل منهما.

«هو» ذلك الشاب الطيب العنيد ...تفيض عيناه ببراءة وصدق نادرين...عيناه نافذتان مفتوحتان على ما بداخله وما يفكر فيه..لا تستطيع عيناه أن تخفيا أبدا مشاعره وانفعالاته..فإن أخبرتك عيناه شيئا فما عليك إلا أن تصدقهما فهما لا تكذبان أبدا.

«هى» تلك الفتاة الطيبة المجنونة...تلقائية الحديث والحركة.... حينما تراها معه كأنك ترى طفلة بريئة مبتهجة فى يوم العيد تقفز فرحا دون أن تعبأ بما يمكن أن يقوله الناس عنها.

منذ سنوات قليلة عقدا العزم على الفراق. كل منهما رأى أن الآخر قد أخطأ فى حقه وأن الآخر لم يكن الشخص المناسب لاستكمال الحياة معه.

بحكم طفولة قلبها وبحكم طبيعة المرأة العاطفية كانت مترددة كثيرا فى هذا القرار ولكنها تعلمت على يديه «العند» وعلمتها التجربة أنه كلما كانت مشاعرها أكثر صدقا واندفاعا فإنها حين

يصدمها إصرار الآخر على الفراق تصير هذه المشاعر المجروحة هى من يلومها ويوبخها دائما إن فكرت للحظة فى الرجوع إلى الجنة التى لفظتها.

أما «هو» فدائما لا يسمح لنفسه بالندم على أى شىء...حينما يباغته الندم وهو سائر فى طريقه فإنه يدير وجهه عن هذا العابر غير المرحب به , فإن أصر «الندم» على ملاحقته لعله يظفر منه بدقيقة من وقته فإنه يعطى الندم درسا قاسيا كفيلا بأن يجعله يقلع عن ملاحقته.

اليوم وبعد سنوات من الفراق تواعدا لدقائق. كان السبب الذى أعلنه كل منهما أمام نفسه متعلقا بأداء الواجب وأداء حق العشرة والعيش والملح. لم يشعر «هو» باللهفة أو أنه يحصى الدقائق منتظرا لحظة اللقاء المرتقبة وربما «هى» الأخرى لم تكن كما كانت عند اقتراب أى لقاء بينهما فى الأيام الخوالى.

بحث عنها بعينيه فى المكان المحدد لهذا اللقاء عند رصيف «٣». التقت عيونهما بعد غياب طويل. وكالعادة حينما تلتقى عيونهما تستيقظ سعادة غافية ...تدب بها الحياة، تنطلق ممسكة بيديهما حريصة على ألا تفلتهما هذه المرة.

لم يستطع أحدهما أن يخفى سعادته عن الآخر ولم يحاول أن يفعل. كان اللقاء قصيرا جدا، لكنه كان جميلا. تمنى «هو» ألا ينتهى اللقاء وأن تبقى معه وقتا أطول وتمنت «هى» أن يتوقف الزمن فى هذه المحطة و لا يغادرها أبدا.

بادرته برجاء كان يتوقعه منها:

- أرجوك غير وجهتك...اركب معى قطارى.

ابتسم لها فى ود قائلا:

= إن فاتنى هذا القطار سوف ترتبك كل ترتيباتى فى العمل.

اقترب موعد قطاره ..فنظر إليها متمنيا أن تقبل فكرته قائلا:

= تعالى معى ...غيرى وجهتك ...افعليها أنت.

نظرت إليه وابتسمت قائلة :

-للأسف صعب.

كان قلبها فى هذه الأثناء كالطفل الذى يتوق إلى شىء فيظل يجذب طرف ثوب أمه كى تسمع رجاءه وتستجيب لإلحاحه.

ركب «هو» قطاره ولازال يرجوها أن تطلق العنان لجنونها كما اعتاد منها. تمنى أن تقبل فكرته بينما ظلت هى لآخر لحظة ترجوه أن يترك قطاره ليعود معها على قطارها.

أبى القطار أن يرق لحالهما،وأخذ يجر عجلاته ببطء. جن جنونهما .. تعانقت عيونهما بحرارة .. يتساءلان هل من لقاء قريب !.. هل سوف ننتظر سنوات أخرى ..!

ثم انطلق القطار بسرعة ليغادر المحطة تاركا خلفه فى هذا المكان أطلال لحظات سعيدة.

علي الحدود

امتطي جواده حاملا ما تبقي من سنوات عمره و زاد من التجارب و الذكريات بأفراحها و آلامها. انطلق الجواد تارة راكضا يطوي الأرض تحت قدميه دون تمهل و تارة أخري يسير متثاقلا و كأن الجاذبية الأرضية تضاعفت مئة ضعف بل إنه أحيانا كان يستدير بفارسه وكأنما قد انتوي الرجوع مرة أخري إلي حيث انطلق.

وبين ركوض متعجل وخطوات متثاقلة انقضت رحلتهما و انطوت الأرض الواسعة تحتهما حتي وصلا إلي الحد الفاصل بين الأرض التي يغادرها الآن والتي كان قد اختارها يوما ما وطنا أبديا له، و الأرض التي يعود إليها الآن بعد أن لملم جذوره من باطنها يوما ما ورحل.

أوقف جواده عند هذا الحد الفاصل ثم ترجل عنه ليقف ناظرا ببصر شارد إلي الأفق بينما جواده ينظر إليه مشفقا عليه مشاطرا إياه حيرته و ألمه.

ما أصعب الوقوف عند حدود الأشياء دون القدرة علي المضي بخطوات ثابتة وروح مستريحة إلي ما وراء هذه الحدود..!

ولكنه لم يشعر أبدا في هجرته الأولي بمثل هذه الحيرة و هذا الألم

و لم يتوقف وقتها عند تلك الحدود عاجزا عن التقدم أو الرجوع إلي الخلف. في هجرته السابقة استطاع بكل اقتدار وهمة أن يلملم جذوره في حقيبة سفره أما هذه المرة فقد ترك جذوره هناك تعانق الأرض عناقا أبديا مدركا عجزه التام عن أن يغلبه.

اقترب منه حصانه في هدوء خافضا رأسه مستشعرا جلال وهيبة الحزن المسيطر ثم مسح رأسه في كتف صاحبه. فنظر إليه صاحبه ليجد في عينيه نفس الحزن الذي يسكنه معلنا عن نفسه بدموع تشق مجري لها في وجه الحصان.

احتضنه الرجل باكيا هو الآخر ثم قال:

« ماذا أفعل ؟ لا أستطيع أن أعبر هذه الحدود ....قلبي يرفض و روحي تصرخ و قدماي تتمردان عليّ. لا أستطيع أن أترك الوطن الذي اتخذه قلبي ملاذا له و محرابا يتعبد فيه بكل تراتيل الحب التي تتفتح ببركتها كل زهور الكون و تضيء نجوم الليالي بفيض نورها.»

«يظل الرجل تائها بلا وطن قبل أن تشتعل بداخله مشكاة الحب لتدله بنورها علي وطنه الحقيقي ، في عيني امرأة لا يري حياة دونها.»

«أنت تعلم أني قد أحببتها حبا أفني أنانيتي وكنت سعيدا

وأنا أصبح مجرد ذرات متناثرة في فلكها و صار صدي دقات قلبها مسموعا في صدري. ولكن بعد كل هذا و كما شهدت بنفسك يا صديقي أصبحت زهورها تبخل عني بعبيرها بل كادت جنتها

لتبتلـع زهورهـا كلـما اقتربـت أحـاول أن أجـد مـن ريحهـا ...هجـرت نجومهـا ليـلي الـذي كانـت تسـامره ...تغـيرت ترنيمـة طيورهـا .....ثـم فاجـأني خنجرهـا في ضـوء النهـار تسـتله في مواجهتـي لتغرسـه في قلبـي مـرارا و تكـرارا و أنـا أنظـر إلي عينيهـا و دموعـي تسـيل فتسـقط لتنبـت تحـت قدمـي أشـواكا».

توقـف عـن الـكلام لأن صوتـه قـد حبسـه النحيـب فأطـرق الحصـان متأثـرا ثـم نظـر مـرة أخـري إلي صاحبـه و عينيـه تريـدان أن تسـألاه : « هـل كرهتهـا ؟»

هدأ نحيبه ثم رد علي سؤال حصانه:

«لـو كنـت أسـتطيع أن أكرههـا لمـا عانيـت كل هـذا و لمـا عجـزت عـن تخطـي حـدود مملكتهـا. تجتمـع بداخـلي قوتـان متصارعتـان تمزقانـني أتمنـي أن تـصرع إحداهـما الآخـري حتـي يتوقـف عـذابي.»

«الكراهيـة نـار مدمـرة تحـرق، و عـذاب حريـق الحـي رغـم فظاعتـه إلا أن ألمـه يهـدأ و يتوقـف تمامـا بموتـه، و لكـن في مثـل حالتـي فهنـاك في قلبـي حبـا خالـد الحيـاة لا يمـوت أبـدا و لذلـك فقـد كتـب عليـه أن يظـل يعـاني مـن عـذاب الحريـق دون أمـل في مـوت يريحـه».

وجـه الحصـان بعينيـه مـرة أخـري سـؤالا آخـرا : «و مـاذا بعـد ؟ أيـن سـنتوجه الآن ؟»

سكت قليلا ثم نظر إلي الأفق و قال :

«لا أعرف».

ثم نظر إلي حصانه مرة أخري ليخبره بقراره الأخير قائلا:

« سنحط رحالنا هنا علي الحدود. سأقضي ما بقي لي من عمري هنا علي هذه الحدود إلي أن يقضي الله أمرا كان مفعولا».

ساد الصمت إلي أن كسر الصمت صوته مرة أخري مخاطبا حصانه:

.»إن جاء أجلي فاحملني إليها و ادفنني في أحضان أرضها فلازال هناك وطني».

بنت الشمس

كعادتـه في مثـل هـذا اليـوم مـن كل أسـبوع و قبيـل غـروب الشـمس، كان «البحـر» ينتظـر صديقـه الـذي عـوده عـلي لقـاء خـاص يسـتمتع كل منهـما فيـه بحديثـه مـع الآخـر.

- كنـت أؤمـن أني أعرفهـا تماما...أفهمهـما جيدا....كـم غصـت في أغـوار نفسـها واسـتخرجت مـن داخلهـا لأليء لم تكـن هـي تعلـم بوجودهـا قبـل أن أكتشـفها.

هكذا بدأ «علي» حواره مع البحر الذي كان يستمع إليه منصتا.

استطرد «علي» قائلا:

- عرفتهـا كـما لم تعـرف نفسـها. هـل كنـت مخطئـا حـين آمنـت أني أفهمهـا تمامـا كـما أفهـم نفـسي ؟ هـل أخطـأت حـين اعتقـدت أنهـا قـادرة عـلي أن تفهمنـي تمامـا؟

ابتسم «البحر» ثم قال ساخرا:

وهل حقا أنت تفهم نفسك تماما؟!

تعجـب «عـلي» مـن طـرح صديقـه لهـذا السـؤال و خاصـة مـع هـذه الابتسـامة السـاخرة، فـرد بابتسـامة هـو الآخـر:

عشت مع نفسي فوق الثلاثين عاما، فهل تظن أني لم أفهمها بعد ؟!

ثم استطرد بوجه أكثر جدية قائلا:

- أنا لا أتجمل أمام مرآة نفسي، لا أكذب عليها. دائما أواجه نفسي بعيوبي و أخطائي و أعلم أيضا مواطن قوتي و تألقي. فكيف يكون غريبا أن أقول أنني أفهم نفسي تماما ؟!

ابتسم البحر مرة ثانية و لكن هذه المرة دون أي سخرية قائلا:

يا صديقي العزيز. عشت آلاف السنين و إلي الآن لم أجرؤ أن أخدع نفسي بأني قد فهمت كل شيء عن ذاتي. لا زالت أندهش حينما أتأمل غضبي و هدوئي. أتعجب كثيرا و أنا أشاهد أمواجي تخضع مستسلمة لمزاج القمر مدا تارة و جزرا تارة أخري بينما أنا -و كما تعلم- أفيض عزة و كبرياءا....أنظر إلي نفسي متسائلا كيف و أنا الذي استودعه العاشقون أسرارهم و نجوي قلوبهم، أكون في كثير من الأحيان من يبتلع سفنهم و يكتب سطور الفراق في قصصهم.

صمت البحر لبرهة ثم قال:

دعنا الان نلتحق بمراسم توديع الشمس فلا يليق بي أن أحادثك و أغفل عن هذا الحدث العظيم و لنكمل حديثنا بعد انتهاء المراسم.

انهمك البحر في طقوسه الخاصة بينما شرد علي ناظرا بعينيه الي السماء غير عابئا بموكب الشمس المغادرة، و إذا به يري نفسه ينتقل إلي مكان اخر.!

يسير»علي» في حديقة منحها الربيع كامل سحره و جماله، يداعب أنفه عبير زهور لم يعرف مثل روعتها من قبل فيسرع الخطي في اتجاه هذا العبير ليري نفسه محاطا بأزهار بيضاء رائعة الجمال.

كان حريصا كعادته أن يحافظ علي حياة الازهار و ألا يؤذي هذه المخلوقات الجميلة التي تهبه السعادة.

رأي «علي» طيارة ورقية ملونة بألوان قوس قزح فاستيقظ الطفل بداخله ليركض خلفها لعله يتمكن من الامساك بخيطها المتدلي بالقرب من الارض. أسرع إليه بينما يسمع صوتا يئن تحت قدمه فالتفت إليه ليجدها زهرة جميلة بلون السماء الصافية قد التوي عنقها تحت وطأة حذائه الراكض نحو خيط الطيارة الورقية.

بوثبة رشيقة استطاع أن يلتقط طرف الخيط ليشعر أنه قد امتلك العالم بين يديه فلمعت عيناه. لكن عيناه وقعتا علي ثلاثة ظلال لهم وجوه الذئاب و أجساد البشر يحيطون بطفلة تحتضن دميتها الي صدرها بشدة، خائفة تبكي، فأفلت خيط الطيارة الورقية ليهرع اليها واستل سيفه من غمده ليقاتلهم و قد أقسم أن يفصل رؤسهم عن أجسادهم لكن شرارة الغضب في عينيه أرعبتهم أكثر من بريق سيفه ففروا هاربين بلا أثر.

ضحكت الطفلة بفرحة و احتضنته فامتلأ قلبه بالدفء و الصفاء والفرحة لفرحتها. طبع قبلة أب حنون علي جبهتها. نظرت إليه بعينيها البريئتين الرائعتين ثم قالت له :

ما رأيك أن تلعب معي؟

ضحك قائلا:

- ولكن ما اللعبة ؟

ردت :

أختبيء منك و تبحث عني.

وافق «علي» و أحب أن يشاركها اللعب. أغمض عينيه ليمنحها فرصة الاختباء ثم فتحهما و راح يبحث عنها و هو سعيد باللعبة التي تسعدها. لكن بحثه عنها قد طال و طالت فترة اختبائها فتسلل القلق إلي قلبه و راح ينادي عليها في كل مكان. ظل يبحث عنها و الخوف يغرس أنيابه في فؤاده بلا رحمة. لم يكف عن النداء و انطلقت دموعه فيضانا و قلبه الجريء يرتعش خوفا داخل صدره. و إذا بها تعود إليه مرة أخري فاجتمع ضحكه و بكاءه في وقت واحد فاحتضنها مرة أخري فإذا بها هي هذه المرة تطبع قبلة علي جبهته تهديه دميتها و تودعه لتسير علي سلم خفي يمتد من الارض الي السماء تحيطها أشعة الشمس الذهبية.

فسألها متعجبا :

- من أنت ؟

ابتسمت قائلة:

أنا بنت الشمس.

استيقظ «علي» ليجد البحر ناظرا إليه مبتسما كأنه كان يتأمله، و وجد الشمس قد لملمت آخر خيوط أشعتها لتسافر إلي مكان جديد، ووجد يديه مضمومتان فوق صدره و بينهما دمية بنت الشمس.

اغتراب مع سبق الإصرار

ازدحمت جدران زنزانة «٢٢» بأحلامهم وذكرياتهم قد خطتها أيديهم فى أوقات الفضفضة بين كل منهم وتلك الجدران التى تضمهم قسرا.

ولكن ضيفا واحدا من ضيوف هذه الزنزانة لم تعرف الجدران خطه يوما، فهو لا يحب أن يخط مشاعره وأحلامه سوى على جدران قلبه الذى امتلأ بأحلام مؤجلة تنتظر اليوم الذى تتنفس فيه نسيم الحياة.

كان «يحيى" مختلفا عن كل رفاق السجن دون أن يتعمد ذلك ودون أيضا أن يسمح لهذا الاختلاف أن يبقيه بعيدا عن مشاركتهم حياتهم اليومية بل وربما قد تتعجب إذا علمت أن هذا المختلف عن الجميع هو الأقرب إلى الجميع و هو مستودع أسرارهم.

قضى «يحيى" طفولته فى إحدى دور رعاية الأيتام ثم انطلق بعد ذلك لمواجهة الحياة بمفرده بعد تخرجه من الدار، اجتهد فى عمله بأكثر من حرفة نجح فى أن يتعلمها حتى أتقنها، ثم التحق بالجامعة فكان يعمل ويدرس فى نفس الوقت حتى حقق ما كان يصبو إليه فى الحصول على شهادة جامعية.

كانت دائما مشكلته الرئيسية هى الوحدة، فلقد عاش بلا أسرة

فضلا عن الوحدة التى كان يشعر بها داخليا حيث أنه لم يجد حوله من يستطيع أن يتفهم مكنون ذاته فيأنس إليه.

ولكنه خلق فى خياله هذا الشخص الذى يؤنس وحدته ويتفهمه ويحتويه، فلقد صنع «يحيى" لنفسه محبوبة خلق قلبها من شريان قلبه ومنحها جزءا من روحه لتعيش بداخله فتملأ عليه حياته وتطرد أشباح الوحدة بعيدا عن فؤاده.

لم يكن يخدع نفسه بوهم صنعه بيديه ولكنه كان دائما يؤمن أن هذه الحبيبة موجودة بالفعل على أرض الواقع وأن القدر قد رتب موعدا للقائهما ولكنه لا يعلم متى وأين، فالقدر لا يحب أن يخبرنا بشيء قبل أوانه.

خرج «يحيى" من السجن بعد أن قضى مدة العقوبة فى قضية (القتل عن طريق الخطأ) التى أدين بها. خرج وهو أكثر إصرارا على البحث عن محبوبته التى لا يعرف لها إسما ولا عنوانا. لقد جعلته ليالى السجن القاسية أكثر اشتياقا واستعجالا للقاء تلك الحبيبة التى سيكتمل كيانه بين يديها.

كان ذكاؤه وخفة ظله يضفيان عليه وسامة لم تمنحها له ملامحه، فضلا عن عينين تمنحان الدفء لمن يفتقده، كل هذا جعل «يحيى" شخصا جذابا لكثير من الفتيات، فكانت فرصته أوسع فى البحث عنها.

فى كل فتاة كان يبحث عن تلك الروح التى يشتاقها ولكنه لم يفلح فى العثور على محبوبته وفى كل مرة كان يصيبه الإحباط ولكنه يزداد

اشتياقا واحتياجا لها إلى أن التقى بـ»حياة»، تلك الفتاة العجيبة التى تجمع بين كثير من العقل وكثير من الجنون، كانت خليطا غريبا يجمع بين الرقة الشديدة والجرأة، تشعر وأنت تحادثها بحكمة وبلاغة تنطلقان من ثغرها تطربان عقلك ولكنها تفاجئك خلال حديثها البليغ بكلام طفولى لا تملك معه إلا أن تضحك من قلبك.

منذ الوهلة الأولى شعر بانجذاب شديد تجاه «حياة» وارتياح لم يعلم سببه وإن لم يكن هذا هو شعورها تجاهه فى بادئ الأمر ولكنها كانت تراه شخصا طيبا مريحا تسكن إليه. حرص «يحيى" على أن يكون دائما قريبا منها حتى اطمأن لمشاعرها تجاهه التى تطورت سريعا حتى أصبح هو كل شيء بالنسبة لها. صارحها بأنه يبحث عن محبوبته المجهولة منذ سنوات وأنه منجذب إليها انجذاب غير مسبوق بالنسبة له تجاه أى فتاة مرت بحياته وأنه يتعشم أن تكون هى من كان يبحث عنها طوال حياته.

كان «يحيى" يشعر معها أنه يحادث جزءا من نفسه لكنه دائما يخشى أن يكون مخطئا. أتري موعد لقائه بمحبوبته المنشودة لم يأت بعد؟ ربما لا تكون «حياة» هى نفسها من ينتظر لقاءها؟ ربما لم يستطع أن يصدق أن القدر قد رأف بحرمانه فمنحه موعدا مع ضالته أقرب مما كان يتوقع. منذ أن قابل «حياة» وهناك صراعا متواصلا قد اشتد بداخله بين رغبته الشديدة فى البقاء بالقرب منها وبين قلقه أنه ربما بوجوده مع «حياة» قد يحرم نفسه من مواصلة البحث.

- «ولكننى أشعر بالقرب منها أننى جزء منها وأنها جزء منى.. أشعر بارتياح لم أعهده مع مخلوق من قبل.. هل من الممكن أن ينتظرنى مع غيرها أكثر من هذا؟! «

- «ولم لا أحاول أن أنطلق مرة أخرى لأواصل البحث فإن وجدت أنه كان ينتظرنى الأفضل فقد فزت وأن لم أجد فسأعود إليها وأعيش معها هانئا دون أن يطاردنى هاجس مواصلة البحث مرة أخرى».

- «ولكننى أخشى أن أفلتها فلا أجدها مرة أخرى»

- « ولكننى أثق أننى أسكن روحها وقلبها فهى لن تستطيع أن تعيش بدونى"

هكذا يدور الحوار بين «يحيى" ونفسه، إلى أن استقر علي أن يترك «حياة» ليواصل رحلته. ولكنه بعد انقضاء سنوات من البحث والاغتراب فى حياة بلا «حياة» أيقن أنه قد خدع نفسه بسراب ظل يبحث عنه وترك من أجله من عاش يحلم بلقائها.

عاد «يحيى" وهو يحصى كل لحظة تمر عليه كأنها دهرا فى انتظار أن يلتقى «حياة» لتركع ذنوبه أمام قلبها الرحيم الحنون فتضمه إليها فتدب الحياة فى أوصاله مرة أخرى. قرر وعزم النية صادقا أنه لن يتخلى عنها مرة أخرى فلقد علم أن مذاق الحياة بلا «حياة» لا يطاق. كان يثق أنها ستقبل توبته بمجرد أن تلتقى عيناها بعينيه وأنها لن تستطيع أن تستمر فى تنفيذ قرارها بالابتعاد عنه الذى اتخذته منذ سنوات حين فشلت فى محاولاتها فى أن تثنيه عن قراره بالرحيل حيث أصرت على قطع الاتصال بينهما تماما بعد اصراره

عـلى الرحيـل.

ذهـب «يحيـى" إلى مـكان عملهـا فلـم يجدهـا وفوجـئ أنهـا قـد تركـت العمـل وتركـت مـصر منـذ شـهور قليلـة لتسـافر مـع زوجهـا الـذى يعمـل بالخـارج.

«سافرت؟! زوجها؟!!»

جـن جنونـه، صـار يبـكى دموعـا عـن عمـر قـد انقـضى فى بحثـه عـن شىء امتلكـه بيديـه فأفلتـه بكامـل ارادتـه، وعمـر لا يـدرى كيـف سـيمر وقـد فقـد نصـف روحـه للأبـد.

مـا أغبـى الانسـان الـذى يملـك سـعادته بـين يديـه ثـم يتركهـا لاهثـا خلـف سراب لا يغنـى مـن الحـق شـيئا ! مـا أتعـس إنسـانا قـد اختـار بحماقتـه لنفسـه الاغـتراب مـع سـبق الاصرار..!

خالد

(إنه نسخة طبق الأصل من عمه «شوقي» سبحان الله)

هـذا مـا يـردده الجميـع دائمـا حـول التشـابه الشـديد بـين ملامـح «خالـد» و عمـه «شـوقي».

كان شـوقي في الخامسـة و العشريـن مـن عمـره حينـما أنجـب اخـوه ابنـه الوحيـد «خالـد». بالطبـع كان للشـبه الكبـير بـين الولد و عمـه دورا عظيـما في تعميـق العلاقـة بينهـما و زيـادة حـب و اهتـمام «شـوقي» بخالـد منـذ نعومـة أظافـره.

كان «شـوقي» يـري فيـه نفسـه كـما يحـب أن يراهـا. كلـما نظـر إلي عينـي «خالـد»، شـعر كأنـه ينظـر إلي مـرآة يـري فيهـا روحـه بريئـة حـرة لا تقيدهـا أغـلال الضعـف و الإثـم. إنـه يحـب ذاتـه حينـما ينظـر إلي صورتـه في هاتـين العينـين.

يشـتاق «شـوقي» إلي حريـة قـد سـلبه إياهـا هـذا العـالم الـذي أسـلم إليـه نفسـه يومـا مـا و لم يسـتطع أن يخلـص نفسـه مـن قبضتـه. ربمـا اسـتطاع مـن حـاول تأمـل العلاقـة العميقـة بـين «شـوقي» و «خالـد» أن يلمـح حبـلا سريـا يصـل بـين قلبيهـما لم ينقطـع بعـد، و إن كان قطـع الحبـل الـسري بـين المولـود و أمـه لازمـا لبدايـة حيـاة جديـدة لهـذا المولـود فإنـه في حالـة علاقـة «شـوقي» بابـن أخيـه فهـذا الحبـل الـسري

الممتد بين الفؤادين ربما كان ضروريا لاستمرار حياة كل منهما.
لعل هذا الارتباط القوي بينهما خفف كثيرا من الألم الشديد الذي أوغر صدريهما حينما فقد «خالد» والديه في زالزال ١٩٩٢. كانت فاجعة «شوقي» مضاعفة فقد فجع لفقدان أخيه الحبيب و فجع أكثر لفجعة ولده الحبيب «خالد» الذي فقد والديه و تجرع مرارة اليتم في سن مبكرة.
أصبح «خالد» ابن «شوقي» فعليا بالرغم من انتقال «خالد» من بيت والديه إلي بيت عمته التي لا تنجب فهي الأولي و الأجدر برعايته. كان «شوقي» بالنسبة لخالد مثالا متجسدا للفضيلة و النقاء بالرغم من أنه كان خلف الستار إنسانا ضعيفا أمام شيطانه. حرص في تربيته لخالد، أن يربيه كرجل صالح ، يعلمه الصلاة و يصلي معه، في حين أنه كان لا يصلي الا مع «خالد». إن «شوقي» الذي يراه «خالد» غير «شوقي» الذي يراه «شوقي» حينما يفترق عن «خالد».
لكن «شوقي» وجد نفسه يتعلق بيدي «خالد» لترفعه من الهاوية. كان «خالد» يرفعه دائما دون أن يدري إلي أن أصبح «شوقي» شخصا أفضل بكثير من نسخته السابقة. ربما لم يكن قديسا كما يراه «خالد» لكنه بالتأكيد صار إنسانا لم يتوقع أن يكونه يوما ما بعد أن كان غارقا في ظلمات ضعفه يحتنكه شيطانه.
أحب «شوقي» منذ سنوات فتاة حبا حقيقيا صادقا و لكن هذه المشاعر النبيلة لم تقابل منها سوي بالتلذذ باحراق قلبه عشقا دون

أن ترق لحاله أو تتوب عن اللعب بهذا القلب.

كانت هذه الفتاة راقصة بإحدي الملاهي الليلية التي اعتاد أن يرتادها «شوقي» قبل أن تتزوج ثري عربي و تسافر معه إلي بلاده، و لكنها اليوم عادت إلي مصر لتمتلك ملهي ليليا خاصا بها تديره بنفسها. اشتاقت «سندس» إلي لعبتها القديمة، اشتاقت لتلك النشوة التي تشعر بها و هي تعذب قلبا كان ينظر بعشق الي روحها لا الي جسدها المكشوف الفاتن. ربما انتقمت من خلال تعذيب هذا الضعيف من كل الرجال.

استطاعت «سندس» أن تعيد التواصل معه و تشعل بداخله من جديد لهيب الحب القديم و تشعل في حياته أيضا جحيم ارتياد الملاه الليلية. و في ذات ليلة جاء «شوقي» ضيفا لها في مكان عملها اللعين و إذا بالقدر يجره إلي مشادة كلامية عنيفة تطورت إلي معركة حقيقية بالسلاح الأبيض و زجاجات الخمر أسفرت عن مقتل «سندس» عن طريق الخطأ.

أودع «شوقي» السجن بعد أن حكم عليه القاضي أن يعيش سنوات من عمره بين جدران خرسانية و حكم هو علي نفسه أن يحرمها من لقاء «خالد» طيلة هذه السنوات الطويلة، فقد كان «شوقي» يرفض لقاء «خالد» في وقت الزيارة التي تسمح فيها إدارة السجن للمسجونين باستقبال أقاربهم... يبكي لأنه لن يستطيع أن يواجه عيني «خالد» بعد أن عرف حقيقته و بعد أن تعري أمامه في حين أنه يشتاقه و يتمني رؤيته لكنه لا يستطيع مواجهة عينيه.

كان السجان أرحم بشوقي من الجلاد القابع بين ضلوعه. لم يسامح نفسه أنه قتل من أحبها و لم يسامح نفسه عن جرمه الأكبر حين قتل نفسه في عيني ابنه.

مرت السنوات و انقضت و خرج من السجن و لكنه اختفي بعد خروجه دون أن يعلم أحدا بمكانه.حرص أن يهرب من «خالد» و لكنه في الوقت ذاته حرص أيضا أن يتابعه من بعيد و أن يحاول دائما مساعدته حينما يتعثر في طرق الحياة و دون أن يدري خالد أن اليد التي تساعده دائما هي يد أبيه.

في الوقت الذي كان «شوقي» حريصا علي الهروب من ابنه، كان الاخير أشد حرصا علي أن يبحث عنه ليجده و يضمه الي صدره و يقبل يديه و يحتمي بأبيه و يحميه و شاء الله أن يجمع الشتيتين مرة أخري فيوفق «خالد» في العثور علي أبيه الراقد في احدي المستشفيات يتلقي العلاج لمضاعفات التليف الكبدي.

لا يسع الحروف و الكلمات الا أن تبكي فقط و تعلن عجزها الكامل عن وصف لحظات لقاء الأب بأبيه بعد سنوات الفراق و العذاب.

من المستحيل أن تعوض الأيام القليلة التي قضاها خالد بالقرب من أبيه في المستشفي سنوات الحرمان التي أضنتهما. و حين اقتربت لحظة الفراق الأخير بين الاثنين بكي «خالد» علي صدر أبيه قائلا :

لماذا ينتهي كل شيء؟! -

ضمه أبوه إلي صدره اكثر و مسح علي رأسه قائلا:

= الفناء سنة الحياة يا بني .....لا شيء في الحياة بلا نهاية ....الأوقات السعيدة التي لا نتمني نهايتها تنتهي رغم أنوفنا ....و الأوقات المؤلمة التي ترهق نفوسنا أيضا تنتهي يا ولدي.

ثم استطرد محاولا أن يعلمه آخر درس قبل أن يغادر الدنيا :

= أرانا الله في الدنيا معني الفناء حتي نعي جيدا معني البقاء و الأبدية بجماله و خطورته فتكون الابدية ثوابا و مكافأة و تعويضا، أو تكون عقابا شديدا نستعيذ بالله منه.

ثم ابتسم في مواساة لولده قائلا:

= سأرحل عن هذه الدنيا و لكنني تركت فيها أجمل ما في «شوقي» ليعيش فيها. أنت يا «خالد» أجمل ما في «شوقي».... تمنيت كثيرا أن أشبهك أنا، لا أن تشبهي أنت.

ثم كانت أخر كلماته قبل أن يدخل في الغيبوبة الأخيرة:

سينتهي الألم يا ولدي.

مدد يا جعفر

أحاول أن أتذكر كيف وصلت إلي هنا و لكن آخر ما أذكره هي صرخات الركاب بعد أن أخبرهم طاقم الطائرة أن هناك قوة مجهولة تجذب الطائرة إلي أعلي مع فقدان تام للسيطرة عليها.

لا أعلم أين أنا الآن ! إنه مكان عجيب. يبدو أنني سقطت في صحراء لم نقرأ عنها من قبل في كتب الجغرافيا التي درسناها، إنها صحراء غريبة ذات رمال ناصعة البياض، لا أري شيئا حولي سوي رمال بيضاء.

يا الله !! ماذا جري للسماء؟! السماء ليست زرقاء كما نعرفها إنما هي ملونة بألوان قوس قزح.... لعلها ظاهرة الشفق القطبي ؟!!!

إذن فأنا في أحد القطبين الشمالي أو الجنوبي..!

كيف وصلت إلي القطب ؟! كانت طائرتي متجهة إلي الهند فكيف لي أن أصل إلي هنا !

ولكنني لا أشعر بأي برودة علي الإطلاق بل إن العرق يترقرق فوق جبيني !! ثم أين الجليد إن كنت في أحد القطبين !! لا جليد هنا إنما فقط رمال بيضاء !

إذن فأين أنا ؟ و كيف وصلت إلي هنا؟!

مشيت قليلا محاولا استكشاف هذا المكان الذي لا أري فيه شيئا

مألوفا بالنسبة لي إلي أن وجدت الطائرة التي كنت مسافرا علي متنها راقدة فوق الرمال. أسرعت تجاهها ولكن ..!

ما هذا ؟!

يد عملاقة تمسك بي .. ما هذا ؟!

ما الأمر ؟! لمن هذه اليد ؟!

لعلي أصبحت فريسة لأحد الوحوش الضخمة؟!! أم أن الأقدار قذفت بي إلي مملكة من ممالك الجان ؟!!

وقعت عيناي أخيرا علي وجه صاحب اليد العملاقة فوجدته أقرب ما يكون إلي القطط و لكنه بلا فراء.

تذكرت «جعفر» و لسان حالي يقول (مدد يا جعفر)، فلو كان حاضرا معي لربما استطاع أن يمنع عني أذي هذا القط العملاق حين يخبره أنني رجل طيب غير مؤذي و أنني صديقه الحميم و لحكي له عن وجبات السمك الشهية التي أقدمها له.

آه يا جعفر فلو كنت حاضرا معي لربما أخبرته عن دفاعي عنك أمام صراخ زوجتي بعد كل مرة تجد فيها آثار مخالبك الحادة في أثاث المنزل. أين أنت مني الآن يا جعفر لتتوسط لي عند عملاق بني جنسك الأصلع !

أغمضت عيناي واستسلمت لقدري فقد أيقنت أنني سأكون وجبة – ربما تكون شهية- لقط عملاق.

شعرت باقترابي من وجهه فأنفاسه تهب كالريح. لم أستطع أن أمنع نفسي من إلقاء نظرة أخيرة إلي مثواي، فاستطعت أن أفتح عينا

واحدة بينما آثرت الأخري أن تغلق عليها جفنيها لتحتمي خلفهما من بشاعة ما يمكن أن تراه. و إذا بيد القط تسلمني إلي فمه !!
و لكن ما هذا !! إنه لم يلتهمني كما تصورت بل حملني بأسنانه التي غرسها في ملابسي. إنه يحملني كما تحمل القطط صغارها !
لعله استطاع أن يشم رائحة «جعفر» بملابسي فأنس إليّ !! أو ربما كان جعفر مبروكا فشعر بي و صنع كرامة لينقذني !!
و لم لا يكون آخذني إلي صغاره ليطعمهم إياي !!!!
عدت إلي استسلامي و رضيت بأي مصير و أنا مغمض العينين طوال الطريق محمولا بين أسنانه إلي أن بدأت أسمع خليطا من أصوات مواء القطط تتخللها أصوات بشرية. تنوعت الأصوات البشرية ما بين صراخ ، بكاء وضحكات هيستيرية.
نظرت فوجدت ركاب الطائرة بين قطط كثيرة. لم أجد أي آثار دماء أو بواقي أجسام بشرية ، يبدو أن الوليمة لم تبدأ بعد أو أنهم لا يأكلون البشر!
وقف الأصلع العملاق أمام عملاق آخر يصغره في الحجم كثيرا و يحمل منه شبهها كبيرا، يبدو أنه ولده. ثم تمت عملية إنزالي من فمه إلي الأرض بنجاح. أصبح الآن من الواضح أنني هديته لصغيره.
أين أنت يا جعفر لتري صديقك المحترم وقد صار فريسة لصغار القطط العملاقة دون كبارها !
لم أدر بنفسي إلا و أنا أنظر إلي الأب العملاق و أصرخ في وجهه حتي أحتفظ أمام نفسي ببعض كرامتي التي أهدرها هذا الضخم. أعلم

أني سأغضبه و ربما تكون آخر لحظة في حياتي، و لكن فليمت المرء و هو يصون كرامته.

صرخت في وجهه و لكنه لم يفعل شيئا ! فصرت أصرخ و أسبه أكثر و أنفث عن غضبي و خوفي المكبوتين. استدار و مشي خطوات قليلة ثم عاد نحوي حاملا اناءا به حشرات ذات أحجام كبيرة فكانت الواحدة منهم في حجم خروف صغير !

وضع الإناء أمامي ثم أومأ برأسه و مسح علي رأسي بيده الضخمة دون أن يؤذيني. لقد فهمت إنه يقدم لي الطعام !

يبدو أنه عملاق طيب قد ظن أنني أصرخ جوعا فيريد إطعامي.

جثوت علي ركبتي أمام الإناء و أنا أبكي حالي.

أين أنا و ما الذي أتي بطائرتنا إلي هذا المكان و أين هذا المكان من خريطة العالم !!

اقترب مني العملاق الابن ثم أخرج لسانه ليلعقني فأغمضت عينيي و صرخت صرخة عالية خرجت من أعماق صدري.

فإذا بصوت كصوت زوجتي يجيبني : لا تخف

فتحت عيني فإذا بجعفر يلعق وجههي في حنان ليوقظني من النوم و إذا بزوجتي تقول لي:

لا تخف إنه كابوس من كوابيسك المعتادة...أرجوك إما أن تزور طبيب نفسي أو تطلقني.

الشبح

حملـه بـين يديـه و سـار بخطـي بطيئـة مـترددة نحـو المـكان الـذي اختـاره للحفـرة التـي طالمـا كان يحفرهـا ثـم يردمهـا ليعـود الآن ليكمـل حفرهـا بعـد أن وضـع حلمـه الـذي يحملـه بـين يديـه جانبـا لدقائـق حتـي يسـتطيع أن يكمـل الحفـر.

يحفـر بـكل قوتـه مسرعـا فهـو يخـشي أن يتراجـع هـذه المـرة أيضـا عـن قـراره بـأن يـواري حلمـه الـثري لعلـه يرتـاح بعـد التخلـص مـن الحلـم الـذي طالمـا صاحبـه و أحبـه و عـاش بـه و عـاش لـه و حـارب مـن أجلـه.

انتهـي مـن الحفـر وتوجـه إليـه ليحملـه للمـرة الأخـيرة ثـم يدفنـه. نظـر إليـه الحلـم بعينيـه البريئتـين مسـتعطفا و مسـتنكرا قسـوة هـذا القـرار. خلعـت هـذه النظـرة قلـب صاحبـه و انطلقـت دموعـه فيضانـا مـن عينيـه و تعـالي نحيـب روحـه المجروحـة فاحتضـن حلمـه بشـدة ليودعـه ثـم وضعـه في الحفـرة ليبـدأ بإهالـة الـتراب عليـه و هـو يبـكي. عـاد إلي بيتـه و قلبـه يحـترق، نظـر إلي وجهـه في المـرآة لـيري وجهـا لم يعـد يعرفـه، وألسـنة نـيران قلبـه تتلـوي كالحيـات في مقلتيـه، يراهـا في المـرآة ويشـعر بهـا.

كيـف لـه أن يرتـاح !!! أيـن يلتمـس المفـر مـن هـذه النـيران و هـذه

الآلام...!!

فقـرر أن يعيـش شـبحا، لابـد و أن الأشـباح أكـثر سـعادة مـن الإنسـان فهـم لا يشـعرون و لا يتألمـون.

تحـول بالفعـل إلي شـبح يسـير بـين النـاس...لا يفـرح و لا يحـزن....لا يحـب ولا يكـره...لا يتـألم و لا يرتـاح.

لم تعـد تطربـه تغاريـد البلابـل أو تحـرك فـؤاده ترانيـم الكـروان....لم يعـد يطـارد الفراشـات أو يلهـو معهـا و لم يعـد يغنـي للزهـور في الربيـع.

لم يعـد القمـر يـروي لـه حكايـات العاشـقين ....لم تعـد النجـوم تلعـب معـه «الاسـتغماية» كـما عودتـه.

لم يعـد ينتظـر ولادة النهـار مـن رحـم الليـل كـما اعتـاد مـن قبـل.....لم يعـد مـن الاسـاس يشـعر بالفـرق بـين الليـل و النهـار.

لم يعـد يشـعر بحـلاوة الارتـواء بعـد الظـمأ...لم يعـد يشـعر بذلـك الاحسـاس الجميـل الـذي كان يـسري في روحـه عندمـا يلمـس كـف الرضيـع.

لم يعـد يسـتطيع أن يسـتمتع باسـترجاع ذكرياتـه الجميلـة التـي جمعتـه بأصدقـاء الطفولـة و لم يعـد يسـتطيع أن يشـعر بالفـرح يغمـر قلبـه حـين يبتسـم ثغـر حبيبتـه.

لم يعـد يسـتطيع أن يبـكي ...اشـتاق البـكاء كـما اشـتاق الابتسـام.... اشـتاق أن يعـود إنسـانا حيـاة الأشـباح بشـعة لم يعـد يطيقهـا.

إنسان تخلي عن حلمه لابد و أن يصير شبحا...و حتي يعود إنسانا كان لابد أن يبحث مرة أخري عن حلمه ولا يعود الا به ولا يفارقه أبدا.

وتحت الثري يرقد حلمه حيا ينتظر عودته تؤنسه أحلام وأدها أصحابها كما فعل به صاحبه....إنهم يتسامرون تحت التراب.... يواسون أنفسهم بأن الأحلام لا تموت أبدا حتي و إن دفنت....يموت البشر ولكن أحلامهم لا تموت.

« و لكن البدر ينتظر المد»

شـدت رحالهـا لتبـدأ رحلتهـا إلى المـكان التـى لا تعـرف لـه عنوانـا و لا طريقـا ومـع ذلـك كانـت تسـير وبداخلهـا أمـل فى أن تحـط رحالهـا يومـا مـا عـلى أبـواب المملكـة التـى تنشـدها. تسـمع نـداءات قطـرات المطـر وأوراق الشـجر وبلابـل لم تمـل الغنـاء لمـن تنتظرهـم المملكـة بلهفـة وصـبر لا مثيـل لهـما.... تشـعر وكأنهـا تـرى شـمس المملكـة ذات الثغـر الباسـم التـى لا يمكـن لمخلـوق أن يـرى جـمال ابتسـامتها إلا فى هـذه المملكـة فقـط..... تشـعر وكأنهـا تـرى ليـل المملكـة الأنيـق بردائـه المرصـع بالنجـوم مقبـلا يحتضنهـا فى حنـان محتفـلا بقدومهـا.

تسـير فى طريقهـا تسـتأنس بإصرارهـا وشـوقها إلى الجـمال والحريـة ونشـوة القلـب والـروح. عجيـب أمـر هـذا الطريـق.... فيـه تسـير تـارة يخيفهـا ظـلام مريـب تحلـق فى جوفـه خفافيـش بـلا وجـوه.... فتسـرع خطاهـا قليـلا فـترى بسـاتين خـضراء و نهـار بـلا شـموس... وورود ذابلـة تعانـق اغصـان خـضراء.... بلابـل بـلا غنـاء... و ليـل هـادئ بـلا نجـوم ولا حيـاة.

تتعـثر فى خطاهـا المرتبكـة... تـؤلم قدميهـا أحجـار الطريـق، فتسـمع النـداءات الجميلـة تأتيهـا مـن بعيـد... فتكـف عـن تدليـك قدمهـا المتعبـة... وترقـص بحيويـة وسـعادة عـلى أنغـام تحـى قلبها.... وفسـتانها

الـوردى الـذى أبى تـراب الطريـق إلا أن يـترك آثـاره عليـه يـدور معهـا ويراقـص نسـيم يأتيـه مـن المملكـة المنشـودة.

وعـلى هـذا الحـال كان شـأنها فى طريقهـا الطويـل..... لكن طـول الطريق وصعوبتـه أورثاهـا توجسـا مـن ظـلال الأشـياء، حتـى ظلهـا يومـا خالتـه شـبحا أو ظـلا بـلا حقيقـة، فقـد نسـيت أنهـا هـى أيضـا يمكـن أن يكـون لهـا ظـل.

وفى يـوم اسـتيقظت بعـد نـوم طويـل شـاركتها فيـه احـلام جميلـة و كوابيـس مزعجة..اسـتيقظت عـلى صـوت خطـى قادمـة ورأت ظـلا يقـترب شـيئا فشـيئا. هـى لا تحـب الظـلال... تتوجـس منهـا.... ولكـن خطـى هـذا الظـل لهـا وقـع مريـح.... إلا أنـه فى الأخـير يبقـى ظـلا ينبغـي لهـا أن تتوجـس منـه مثلـما تتوجـس حتـى مـن ظلهـا.

يطربهـا صـوت الخطـوات... يحمـل إليهـا شـيئا مـن ألحـان بلابـل المملكـة المنشـودة.... ولكنهـا صـارت تسـلم للريـح سـاقيها مبتعـدة عـن ظـل يلاحقهـا فى هـدوء ودقـات قلبهـا تعـزف سـيمفونية تـزداد جـمالا واكتـمالا بوقـع خطـوات هـذا الظـل.

توقـف الظـل عـن الحركـة شـيئا فشـيئا.. وازدادت ألحـان السـيمفونية جـمالا و لم تـدر إلا وفسـتانها الـوردى المـترب يراقـص الأنغـام الجميلـة و يجذبهـا لترقـص هـى ايضـا بنشـوة لم تعرفهـا مـن قبـل.

وأوشـك القمـر بـين ضلوعهـا أن يصـير بـدرا فيغمرهـا الأمـل أن يصـير جـزر هـذا الظـل مـدا.. ولكنـه و يـا للعجـب حينـما اكتمـل بدرهـا لم يـزد الظـل إلا جـزرا.

توقفت عن الرقص ونظرت إلى فستانها الوردى المترب... وإلى جروح قدميها التى أحدثتها أحجار الطريق الطويل وإلى البدر المكتمل بين ضلوعها ...وإلى ظلها التى لم تعد تخشاه لأنها الآن فقط عرفت أنها هى الأخرى تملك ظلا وأن الظلال لا تخيف.

لم تكن تعرف أن فستانها الوردى الذى لا يضاهى جماله جمال قد غير لونه تراب الطريق قليلا ..... ولكن هل يصمد تراب طريق سفر طويل امام نهر جار يزيله ويعيد إلى اللون الوردى روعته وبهاءه ؟!

لم تلحظ من قبل أن خطواتها لم تعد طليقة رشيقة.... خطواتها متعثرة.... لعله الخوف من أحجار الطريق التى لم تعد موجودة هنا..... أو ليس الآن وقد أدركت أن طريقها بلا أحجار يمكنها أن تنطلق بخطوات رشيقة سريعة...!!

هدأ كل شيء حولها إلا إصرار البدر أن ينتظر المد.

جميلة

إذا أردت ان تـري كيـف تكـون ضحكـة انسـان مبكيـة فلتتحـدث مـع «جميلـة». إذا أردت أن تشـمئز و تشـفق، تلعـن و ترحـم ، تنصـح و تسـمع فلتتحـدث مـع «جميلـة».

كانـت رحلتـي اليـوم الي «ورشـة الزجـاج» التـي تقـع في وسـط السـوق المكتـظ بالسـلع و البائعـين و المشـترين، حيـث تختلـط الأصـوات و يعلـو الضجيج.

بعـد كثـير مـن الأسـئلة عـن مـكان الورشـة اسـتطعت ان أصـل اليهـا أخـيرا. وجـدت سـيدة نحيفـة قليلـة الحجـم تجلـس عـلي «رصيـف» الورشـة. ألقيـت عليهـا السـلام و أنـا غيرعابئـة بهـا فلـم تـرد. ثـم نظـرت الي الداخـل فلـم أجـد أحـدا فسـمعت صوتهـا تقـول لي بـكل ود:

«أشرف بيصلي و راجع»

ابتسـمت في وجههـا فوجدتهـا تهـب لتـأتي لي بمقعـد كي انتظـر الرجـل. أجلسـتني و راحـت تنظـر اليّ ، تريـد أن تحادثنـي وانطلقـت تتحـدث و كأنهـا كانـت في انتظـار مـن يسـمع حكاياتهـا.

دعـوني قبـل أي شيء أصـف «جميلـة»، سـيدة في العقـد الخامـس مـن عمرهـا تقريبـا و إن كادت لتبـدو أكـبر مـن حقيقتهـا، زرقـاء العينـين،

بيضاء البشرة، و كما ذكرت منذ قليل كانت نحيفة قليلة الحجم. بدأت تحدثني عن صاحب الورشة و أمانته و مهارته و تشجعني علي الاستعانة به. ثم ارتفع صوت إقامة الصلاة بالمسجد المجاور للورشة.

فقالت مبتسمة و بفخر : «إنه هو»

(تقصد انه صوت «أشرف» الذي يرفع آذان إقامة الصلاة)

ثم انطلقت تحكي لي عن نفسها... ولا تسألني كيف انطلقت الي هذا المسار في الحديث لأنني فعلا لا اعرف. تنظر اليّ مبتسمة و تسرد لي آلام و هي تبتسم ابتسامات تقفز متعثرة علي وجهها الأبيض المتجعد. تنظرالي عيناي بعد أن رفعت عنهما نظارة الشمس و تتحدث عن صحتها التي تدهورت من الهم .... تحكي عن ابنها الذي يتعاطي المخدرات و تم سجنه سنة و نصف و انطلقت تشكو لي معاناتها مع هذا الشاب الذي لا يشعر بما حوله و هي تبتسم ابتسامات تجبر قلبك أن يدمع.....تتحدث عن أشياء قد تبدو بالنسبة لي غريبة.. لأني أول مرة أجالس أم لبلطجي أو مدمن...!!..

كانت تحدثني و كأنني من أهل المنطقة و أعرف كل الشخصيات التي لم اسمع مثل أسماءها إلا في الافلام و التي تطلق غالبا علي البلطجية أو أولاد الشوارع .....حدثتني عن جريمة قتل في المنطقة باستخدام الأسلحة الآلية, حيث كان القتيل هو عريس جديد غدروا به بعد عرسه.

و لكنها استطردت قائلة غامزة لي بعينها الزرقاء:

« بس يستاهل أصله كان بلطجي و مفتري»

ثـم تنطلـق في الابتسـام و تكمـل حديثهـا عـن معاناتهـا مـع ابنهـا و تحـكي لي عـن محبـة أهـل المنطقـة لهـا و مسـاعدتهم لهـا، و بالفعـل خـلال فـترة مجالسـتي لهـا مـر أكـثر مـن شـخص كانـوا يلقـون عليهـا السـلام.

وفي احـدي الابتسـامات المبكيـات القافـزات عـلي وجههـا خانتهـا دموعها فبللـت العيـون الزرقـاء دموعـا خفيفـة سرعـان مـا أخفتهـا بابتسـامة قافـزة أخـري. وجـدت نفـسي أسـألها:

«انتي بتصلي؟»

قالت لي :

«لا»

قلت لها:

«جـربي تقـربي مـن ربنـا و تشـتكي لـه, انتـي بتشـتكي لي و بسـمعك و همـشي و انسـاكي و هتشـتكي لغـيري و كلـه هيسـمعك و تصعبـي عليـه شـوية و ينسـاكي, روحـي لـلي مـش هينسـاكي»

ابتسمت قائلة :

«لا بيغفـل و لا بينـام , طبعـا طبعا..بـس أنـا أصـلي بكفـر كتـير و بسـب الديـن كل شـوية».

قلت لها: «هيقبلك، بيغفر أي حاجة مهما كانت»

و استطردت قائلة:

« اللي انتي فيه ده ابتلاء هو عاوزك تروحي له ، و يمكن برضو تخليص ذنوب، بيرحمك بأنه يقرص عليكي شوية عشان ترجعي له فيعدل لك حالك»

قالت : «اه صح , أصلي بشتم امي و بضربها»

سألتها : «هي عايشة؟»

.قالت : « اه»

قلت لها : «قربي من ربنا»

قالت لي : «أنا مرة صليت»

أوجعتني هذه الكلمات، حينما يكون العبد يعرف الله و يشكو لمن لا يملك و لمن هو محدودة رحمته بل و قد يشكو لمن لا يرحم و يترك أرحم الراحمين.

تجربة بالنسبة لي فريدة من نوعها, قد تكون ليست هكذا بالنسبة لمن يقرأ كلامي و لكنني لم أتخيل يوما أن أجالس أم لمن أتجنب أن أمر في طريقهم و تحكي لي عن عالمهم الذي لم أعرفه سوي في الأفلام.

ابتسامات مبكيات، عالم مقزز مثير للشفقة و الرحمة، راحة ربانية غائبة عنهم و هم أولي من يلهث ورائها.

آباؤنا الأيتام

منذ أن تفتحت مداركي علي الحياة, لم أر لأبي أما أو أبا إلا في صور فوتوغرافية (أبيض و أسود) أو في حكاياته التي كان يحب أن يحكيها لنا عن ذكرياته مع والديه و عظمة والده و قوته و حنانه و مكانته العالية بين أهل بلدته و عن والدته ذات الأصل التركي و التي غادرت الدنيا مبكرا لتتركه بلا أم.

كان أبي بالنسبة لنا (و لا زال إلي الآن برغم انتقاله منذ سنوات قليلة إلي العالم الآخر)، رمزا للقوة و الرجولة و سندا لا نستطيع أن نخاف في وجوده أبدا.
لم أر أبي يوما يخش شيئا، حتي أنني كنت أعتقد أن أبي أقوي من كل شيء. لا يخشي الظلام ، لا يخشي الثعابين، لا يخشي اللصوص و لا يخشي الرصاص، بالفعل كان كذلك. و لم تكن هذه الفكرة لديّ قاصرة علي صورة صنعتها لأبي كطفلة تري أباها هو بطلها الأسطوري بل كانت تترسخ لديّ دائما بالمواقف التي أعاصرها معه. كنت أتصور أن هذا الرجل القوي لا يحتاج إلي صدر أمه الحنون أو إلي يد أبيه لتربت علي كتفه. أبي كبير و قوي و الكبار الأقوياء دورهم رعاية أولادهم الصغار و لا يحتاجون مثلنا إلي أبوين.

حين كبرت تغيرت نظرتي تماما إلي هذا الأمر بالرغم من أن والدي ظل قويا كما عهدته، و لكنني بدأت أدرك يتمه و بدأت دون إرادة مني أن أكون أما لأبي، هو أيضا استشعر مني ذلك و كنت الأقرب إليه دائما.

أدركت أن الكبار الأقوياء يحملون هموما و أثقالا تجعلهم هم الآخرين محتاجين بشدة إلي الحضن الذي يضم قلوبهم المثقلة المنهكة. أدركت أنه من العدل أن نكون في وقت ما آباءا لآباءنا. لا تترك والديك أيتاما. اهرع إليهما و ضم فؤادهما إلي حضنك. و حين تحب أن تتصدق بحنانك علي الأيتام فأرجوك ألا تنسي أيضا أيتاما أشعل الزمن في رأسهم المشيب و خط بسنونه في وجوههم التجاعيد, قد أودعهم فلذات أكبادهم دورا للأيتام الكبار تحمل اسم «دور المسنين».

ليس علي العقول حرج

ذات يـوم رأيـت رجـلا بـلا مـأوى يعيـش بالشـارع وأعلـم أننـا نراهـم بكـثرة فى زماننـا هـذا، ولكننـى للأسـف رأيتـه وقـد تجـرد مـن آدميتـه فقـد كان جالسـا عاريـا يقـضى حاجتـه دون أن يسـتتر مـن النـاس فى عـرض شـارع مكتـظ بالمـارة، فى سـلوك أقـرب إلى سـلوك الحيوانـات وبعيـد كل البعـد عـن الطبيعـة البشريـة التـى تميـل إلى السـتر واحـترام الـذات.

حقـا أعتـذر عـن هـذا التشـبيه الـذى لم أجـد أصـدق منـه فى وصـف مـا رأيتـه ولم أقصـد بـه الإسـاءة إلى إنسـان خلقـه رب العالمـين وفضلـه عـلى كثـير ممـن خلـق تفضيـلا. فاللـه يعلـم قـدر الألم الـذى اعتـصر قلبـى حينـما شـاهدت إنسـانا قـد تـم تجريـده مـن كرامتـه الإنسـانية.

لا أعلـم لمـاذا انتابنـى شـعور بـأن هـذا الرجـل قـد فقـد أى رغبـة منـه فى التواصـل مـع عـالم البـشر بـل أنـه لم يعـد يسـتطيع أن يتحـدث لغتهـم أو يفهمهـا.

تألمـت وتعجبـت مـن حـال الرجـل وهمـس لى عقـلى، أنـه ربمـا لـولا غريـزة البقـاء التـى خلقـت بداخلـه لأقـدم المسـكين بـلا تـردد عـلى إنهـاء حياتـه قبـل أن يصـل إلى هـذا الحـال، فغريـزة البقـاء تعتـبر قـوة

خفية لا يستهان بها تدفعنا للاستمرار بالحياة برغم كل شيء ولعلها أيضا تجعلنا أكثر صبرا حينما نستقبل الموت.

كيف لك يا عقلى المجنون أن تقول أن غريزة البقاء تجعلنا أكثر صبرا حينما نستقبل الموت وقد خلقت بداخلنا كى نحاول الفرار منه ؟!

استطرد عقلى موضحا فكرته قائلا:
إننا نؤمن بأن الموت هو انتقال من حياة مؤقتة إلى حياة أبدية، وغريزة البقاء تجعلنا نتمسك بالحياة الأولى فى الأساس ولكنها أيضا تدفعنا إلى الرغبة فى أن نكمل بقاءنا فى عالم آخر وحياة أخرى إذا لم يكن من الموت مفرا.

ثم عاد عقلى لتساؤل جديد: ولكن ماذا عن الذى ينكر الآخرة ؟ فهو يؤمن بأن الموت هو النهاية ولا حياة بعده، فماذا يدور بعقله حين يستقبل الموت ؟

لقد أشعل عقلى المتسائل بداخلى رغبة مجنونة فى أن أقرأ ما يمكن أن يدور بداخل المنكر لوجود الله والآخرة وهو يستعد ليسلم الموت آخر نفس فى صدره.

ذات القميص الأبيض

أثناء توقف السيارة بإحدى إشارات المرور فى طريقى إلى عملى صباحا، لفتت انتباهى تلك الفتاة ذات القميص الأبيض الناصع صاحبة الخطوة الواثقة والرأس المرفوعة، تنظر إلى الأمام وتمشى فى همة وثقة، تضرب خطواتها الأرض من تحتها لتنبت أملا.

جذب انتباهى حيويتها وسط المارين بجوارها فمنهم من كان يحمل حقيبته فى يده ويسير شاردا ناظرا إلى الأرض ومنهم من كانت تسير مع رفيقاتها وعيناها زائغتان يمينا ويسارا وكأنها تحاول أن تتفقد كيف ينظر الناس إليها ومنهم من كانت تسير تتحسس ملابسها وشعرها.

لا أعرف تحديدا ما هو أول شىء لفت نظرى إلى ذات القميص الأبيض ولكننى لم أتوقف عن ملاحظتها بإعجاب حتى غابت عن عينى بعد أن فوجئت أن الكم الأيمن لقميصها فارغا.

نعم كانت هذه الفتاة الرائعة بلا ذراع أيمن ولكننى أوقن أنها لا تشعر كما يراها الكثير بأنها غير مكتملة ولم تطفئ نظرة الشفقة

التى قد تلاحقها وهج ثقتها بنفسها أو إقبالها على الحياة.

الذى أدهشنى فعلا هو أننى لم أشعر تجاهها بالشفقة التى اعتادت أن تتبادر تلقائيا إلى قلبى حين أرى شخصا قد حرم من جزء من جسده، فى حين أننى فعلا أشعر بالشفقة تجاه أصحاء قد استطاع الآخرون أن يسلبوهم ثقتهم فى أنفسهم وفى قدراتهم.

وبطبيعة الحال كان لابد أن يحضرنى عميد الأدب العربى الدكتور «طه حسين» الذى لا أكاد أذكره يوما إلا وتنفرج أسارير قلبى ويتجدد فى روحى الاحساس بالجمال. لا أتصور أبدا أن يشعر من يقرأ لطه حسين أنه يقرأ لكاتب فقد بصره فى طفولته المبكرة فقد كان لديه إحساس مبصر بجمال الكون وتفاصيله ليرسم به لوحات أدبية رائعة. فضلا عن مسيرة حياته الغنية بالتحدى والإصرار وإيمانه بعظمه قدراته التى أركعت اليأس أمامه.

أرى أن القوة الحقيقية والقدرة على تذوق الجمال منبعهما بداخلنا فإن لم تؤمن بنفسك وبقدراتك وباستحقاقك للحياة فلن تستطيع أن تحرك ساكنا حتى وإن كنت تملك مؤهلات النجاح.

سلام على كل المؤمنين بأنفسهم والواثقين باستحقاقهم للحياة.

و أنا مالي

ككل صباح و كجزء من الروتين اليومي لهذا المنبه المسكين الذي أطاحت به الأقدار إلي غرفة هذه الفتاة العشرينية ثقيلة النوم ، فيظل يصرخ بأعلي صوته لإيقاظها من سباتها العميق و يود لو أن صانعه قد من عليه بذراع و كف متحركين فيساعداه في إيقاظها بالطريقة التي يرغبها.

و بعد عدة وصلات من الصياح و الصراخ من المنبه المسكين تستيقظ الفتاة فيحمد ربه و يود أن يعتذر لجيرانها عن الإزعاج الذي يسببه لهم يوميا و لكن ما باليد حيلة.

استيقظت الفتاة و كالعادة انتبهت أن النوم قد سرقها و أنها قد تأخرت عن الموعد المفترض لذهابها إلي العمل فتتحول بقدرة القدير إلي مكوك بشري في قمة السرعة و النشاط...و فيما قد يقل عن عشر دقائق تكون قد خرجت إلي الشارع لتستوقف تاكسي.

ركبت التاكسي ليدور الحوار المتكرر في أغلب الأيام:

-المكان الفلاني لو سمحت.

هاخد خمستاشر جنيه يا ابلة.

-ليه يعني!!...ده كتير.

مش كتير علي الزحمة يا ابلة.

توافق و هي ممتعضة و مستاءة من جشع و استغلال بعض سائقي

سيارات الأجرة. الشوارع مزدحمة بالفعل...السيارة تتحرك ببطء وبما يسمح لها بممارسة هوايتها اليومية المفضلة في تأمل المارة وتخيل قصصهم...لكل منهم بالتأكيد قصة و حكاية.

«جميلة مصر....بالرغم من كل ما يمر بها لا تزال تنبض دفئا وحياة»

هكذا قالت لنفسها بابتسامة رضا طيبة ارتسمت علي وجهها وقلبها ،بالرغم من أنها متأخرة عن ميعاد إمضاء الحضور في عملها، وبالرغم من أن هذه الزحمة التي تري فيها جمالا قد لا تكون في نظر أي إنسان عادي تمثل أي جمال علي الإطلاق.

ولكن شيء ما لفت انتباهها علي الرصيف الموازي للسيارة...إلا أنها لا تزال أبعد من أن تتبين ماهيته بوضوح.

يبدو و كأنه شخص نصف جسده العلوي سقط بحوض النباتات الموجود علي حافة الطريق بينما نصفه السفلي خارج الحوض..... كذبت عينيها لأن أكثر من «ميكروباص» قد وقف بمحاذاة تلك النقطة تحديدا لينزل منه بعض الأشخاص و لم يقف أحد منهم أمام هذا المشهد ..فأقنعت نفسها أنها مخطئة في تفسير ما يحدث في هذا المكان...ربما خانها نظرها ....نعم و لم لا ؟

اقترب التاكسي أكثر و كلما اقترب ازداد الأمر وضوحا...لم تكن مخطئة....بالفعل هو رجل مسن ساقط في حوض النباتات نصف جسمه بالداخل و نصفه الأخر بالخارج , يلوح و ينادي طلبا للمساعدة.

لم تـدر بنفسـها إلا و قـد فتحـت بـاب التاكـسي و نزلـت متجهـة إلي الرجـل لتجـده في سـن جدهـا ، يرتـدي ملابسـا نظيفـة و مهندمـة. مـدت يديهـا بسرعـة لترفعـه و بالفعـل اسـتطاعت أن تسـاعده ....ظـل يشـكرها ممتنـا و هـي لا تـزال شـاردة مـن هـول مـا رأت....تفكـر «هـل وصـل بنـا الحـال إلي أننـا قـد لا نلتفـت إلي رجـل مثـل والـد أي شـخص مـن الذيـن مـروا بجـواره و لم يعبـأوا باسـتغاثته..؟!

أفاقـت مـن شرودهـا و قـد تجمـع حولهـا بعـض المـارة و سـائق التاكسي يطمئنـون عـلي سـلامة الرجل المسـكين

و لكن لماذا مر كل الأشخاص الاخرين بجواره و لم يعبأوا به ...؟!

هل خافوا منه ؟هل ظنوا أنه متسولا ...؟؟!!

هل وقتهم كان أثمن من أن يضيعوا منه دقيقة في مساعدة الرجل؟!

هـل (و أنـا مـالي) التـي لم تعرفهـا مـصر الجميلـة يومـا مـا أصبحـت قـادرة أن تفـرض نفسـها بدرجـة أو بأخـري عـلي هـذا الشـعب؟!

عـادت إلي التاكـسي مـرة أخـري....و عـادت تراقـب و تتأمـل المـارة و الشـوارع مـن جديـد و لكـن عيناهـا لم تسـتطع أن تنـسي مـا شـاهدت. و بينـما كانـت تنظـر الي الشـارع مـن شـباك التاكـسي رأت سـيدة مسـنة تحـاول عبـور الطريـق بصعوبـة فهـرع إليهـا أكـثر مـن شـاب مـن الواقفـين في انتظـار الميكروبـاص لمسـاعدتها ليأخـذ أحدهـم بيدهـا و يعـبر بهـا الطريـق.

ابتسمت مرة أخري و قالت:

.»مصر الجميلة ميتقالش فيها و أنا مالي«

تأملات

الحب الحقيقي ليس هو ذلك الاحساس الذي يرتسم أمام مخيلتنا ظاهرا متأنقا متألقا ملونا بجميع ألوان الطيف ...يظهر سريعا فيعجبنا مظهره....نفرح بأننا شاهدناه ....قد نأخذ قرارنا بأن نهرع إليه و قد نتأخر عن هذا القرار توجسا او تخوفا.

نهرع إليه مغمضي أعيننا ...معتقدين أن إحساسنا به سيزداد كلما أغمضنا أعيننا حتي لا نري ما سواه....نهرع إليه فإذا ما حاولنا أن نلمسه لا نشعر في ملمسه بحرارة الحياة ...و إذا ما فتحنا إعيننا لنري حقيقته لا نراه سوي قزما صغيرا يرتدي ملابس ملونة براقة يلهو و يلعب و يجد متعته في ذلك الإنطباع الكاذب الذي تركه لدي من رآه من بعيد و هو مغمض العينين.

يرضي غروره هذا الاعتقاد بهذا التشابه الزائف بذلك الشاب الوسيم الذي لا يهرم ابدا.

الحب الحقيقي إحساس لا يستأذن في امتلاك القلب و في بعض الأحوال قد لا ترغب أنت في هذا الإختيار من الأساس....لكنه

يجتاحك بهدوء...يتسلل الي قلبك و روحك دون ان تشعر به علي الاطلاق....و إن شعرت بتسلله, قد لا تعيره اهتماما و قد تقاومه بشدة و تتفنن في وصفه بأي اسم غير اسمه الحقيقي «الحب» ...لكنك بعد تسلله تصحو من غفلتك علي من سيطر و امتلك هذا القلب دون ازعاجه ببريق زائف او ضوضاء لا تعدو الا ان تكون صدي صوتك الذي ينادي علي الحب.

الحب الحقيقي يبقي في قلبك لا يهرم أبدا....يكبر عمره و لكنه يزداد شبابا و نقاءا.

إن وجدته يتسلل الي قلبك فاتركه يفعل و دعه يغمر قلبك في هدوء و لا تخذله أبدا.